

وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمَلُونَ ﴿١٦٦﴾ وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٦٧﴾

يقول تعالى أمرا رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ أي على طريقتكم ومنهجكم ﴿إننا عاملون﴾ أي على طريقتنا ومنهجنا ﴿وانظروا إننا منتظرون﴾ أي ﴿فستعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون﴾ وقد أنجز الله لرسوله وعده ونصره وأيده وجعل كلمته هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى والله عزيز حكيم .

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٦٧﴾

يخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض وأنه إليه المرجع والمآب ، وسيؤتى كل عامل عمله يوم الحساب ، فله الخلق والأمر ، فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه . فإنه كاف من توكل عليه وأتاب إليه ، قوله ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ أي ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد بل هو عليهم بأحوالهم وأقوالهم وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء في الدنيا والآخرة وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين ، وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا زيد بن الحباب عن جعفر بن سليمان عن أبي عمران الجوني عن عبد الله بن رباح عن كعب قال خاتمة التوراة خاتمة هود .



روى الثعلبي وغيره من طريق سلام بن سليم ، ويقال : سليم المدائني ، وهو متروك عن هارون بن كثير ، وقد نص على جهالته أبو حاتم ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن أبي أمامة ، عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ ﴿علموا أرفاكم سورة يوسف ، فإنه أيما مسلم تلاها أو علمها أهله أو ملكت يمينه ، هون الله عليه سكرات الموت وأعطاه من القوة أن لا يجسد مسلماً ، وهذا من هذا الوجه لا يصح لضعف إسناده بالكلية ، وقد ساقه الحافظ بن عساكر متابعاً من طريق القاسم بن الحكم ، عن هارون بن كثير . ومن طريق شبابة عن محمد بن عبد الواحد النضري ، عن علي بن زيد بن جدعان ، وعن عطاء بن أبي ميمونة ، عن زربن حبيش ، عن أبي بن كعب ، عن النبي ﷺ ، فذكر نحوه ؛ وهو سنكر من سائر طرقه ، وروى البيهقي في الدلائل أن طائفة من اليهود حين سمعوا رسول الله ﷺ يتلو هذه السورة أسلموا لموافقتها ما عندهم ، وهو من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّتِّكَ ءَايَةُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ مَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ

بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذِهِ الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة . وقوله ﴿تلك آيات الكتاب﴾ أي هذه آيات الكتاب ، وهو القرآن المبين ، أي الواضح الجلي الذي يفصح عن الأشياء المبهمة ، ويفسرهما ويبينها ﴿إننا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾ وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها وأكثرها تادية للمعاني التي تقوم بالنفوس ، فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات ، على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة ، وكان ذلك في أشرف بقاع

الأرض ، وابتدىء إنزاله في أشهر شهور السنة ، وهو رمضان ، فأكمل من كل الوجوه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ بسبب إيماننا إليك هذا القرآن .

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن جرير : حدثني نصر بن عبد الرحمن الأودي ، حدثنا حكام الرازي عن أيوب ، عن عمرو هو ابن قيس الملائي ، عن ابن عباس قال : قالوا : يا رسول الله ﷺ لو قصصت علينا ؟ فنزلت ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ ؛ ورواه من وجه آخر عن عمرو بن قيس مرسلأ . وقال أيضاً . حدثنا محمد بن سعيد القطان ، حدثنا عمرو بن محمد ، أنبأنا خالد الصفار عن عمرو بن قيس ، عن عمرو بن مرة ، عن مصعب بن سعد ، عن أبيه قال : أنزل على النبي ﷺ القرآن . قال : فتلاه عليهم زماناً ، فقالوا : يا رسول الله لو قصصت علينا ؟ فأنزل الله عز وجل ﴿ الر تلك آيات الكتاب المبين ﴾ إلى قوله ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ ثم تلاه عليهم زماناً ، فقالوا : يا رسول الله لو حدثنا ؛ فأنزل الله عز وجل ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ الآية ، وذكر الحديث ، ورواه الحاكم من حديث إسحاق بن راهويه عن عمرو بن محمد القرشي المقرئ ، وروى ابن جرير بسنده عن المسعودي ، عن عون بن عبد الله قال : مل أصحاب رسول الله ﷺ ملة فقالوا : يا رسول الله حدثنا ؛ فأنزل الله ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ ثم ملوا ملة أخرى ، فقالوا : يا رسول الله حدثنا فوق الحديث ، ودون القرآن يعنون القصص ؛ فأنزل الله عز وجل ﴿ الر تلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ نحن نقص عليك أحسن القصص ؛ فأرادوا الحديث ، فدلهم على أحسن الحديث ، وأرادوا القصص فدلهم على أحسن القصص .

ومما يناسب ذكره عند هذه الآية الكريمة المشتملة على مدح القرآن ، وأنه كاف عن كل ما سواه من الكتب ما رواه الإمام أحمد : حدثنا شريح بن النعمان ، أنبأنا هشيم ، أنبأنا مجالد عن الشعبي ، عن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه على النبي ﷺ . قال : فغضب وقال « امتوهكون فيها يا ابن الخطاب ؟ والذي نفسي بيده ، لقد جتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهن عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه ، أو يباطل فتصدقونه ، والذي نفسي بيده ، لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني » . وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أنا سفيان عن جابر ، عن الشعبي ، عن عبد الله بن ثابت قال : جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إني مررت بأخ لي من قريظة ، فكتب لي جوامع من التوراة إلا عرضها عليك ؟ قال : فتغير وجه رسول الله ﷺ ، قال عبد الله بن ثابت : فقلت له : ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر : رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً . قال : فسرى عن النبي ﷺ وقال « والذي نفس محمد بيده ، لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللت ، إنكم حظي من الأمم ، وأنا حظكم من النبيين » .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا عبد الغفار بن عبد الله بن الزبير ، حدثنا علي بن مسهر عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن خليفة بن قيس ، عن خالد بن عرفطة قال : كنت جالساً عند عمر إذ أتني برجل من عبد القيس مسكنه بالسوس ؛ فقال له عمر : أنت فلان بن فلان العبدي ؟ قال : نعم . قال : وأنت النازل بالسوس ؟ قال : نعم ؛ فضربه بقناة معه ، قال : فقال الرجل : ما لي يا أمير المؤمنين ؟ فقال له عمر : اجلس فجلس ، فقرأ عليه ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ألم ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص - إلى قوله - لمن الغافلين ﴾ فقرأها عليه ثلاثاً ، وضربه ثلاثاً ؛ فقال له الرجل : ما لي يا أمير المؤمنين ؟ فقال : أنت الذي نسخت كتاب دانيال . قال : مرني بأمرك أتبعه ، قال : أنطلق فاعه بالحميم والصوف الأبيض ثم لا تقرأه ولا تقره أحداً من الناس ، فلئن بلغني عنك أنك قرأته أو أقرته أحداً من الناس لأنهنك عقوبة ؛ ثم قال ، اجلس فجلس بين يديه ، فقال : انطلقت أنا فاتسخت كتاباً من أهل الكتاب ، ثم جئت به في أديم ، فقال لي رسول الله ﷺ « ما هذا في يدك يا عمر ؟ » قال : قلت : يا رسول الله كتاب نسخته لزيداد به علماً إلى علمنا ، فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرت وجنتاه ، ثم نودي بالصلاة جامعة ؛ فقالت الأنصار ؛ أغضب نبيكم ﷺ ؟ السلاح السلاح ، فجاءوا حتى أخذوا بمنبر رسول الله ﷺ فقال « يا أيها الناس إني قد أتيت جوامع الكلم ونحواتيهم ، واختصر لي اختصاراً ، ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية ، فلا تمهكوا ولا يفرنكم المتهوكون » قال عمر : فممت فقلت : رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً ، وبك رسولاً ، ثم نزل رسول الله ﷺ ، وقد رواه ابن أبي حاتم في تفسيره مختصراً من حديث عبد الرحمن بن إسحاق ؛ وهذا حديث غريب من هذا الوجه ؛ وعبد الرحمن بن إسحاق هو أبو شيبه الواسطي ، وقد ضعفه وشيخه . قال البخاري : لا يصح حديثه ؛ قلت : وقد روى له شاهد من وجه آخر ؛ فقال الحافظ أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي : أخبرني الحسن بن سفيان ، حدثنا يعقوب بن سفيان ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الزبيدي ، حدثني عمرو بن الحارث ، حدثنا عبد الله بن

سالم الأشعري عن الزبيدي ، حدثنا سليم بن عامر أن جبير بن نفيح حدثهم أن رجلين كانا بحمص في خلافة عمر رضي الله عنه ، فأرسل إليهما فيمن أرسل من أهل حمص ، وكانا قد اكتسبا من اليهود صلاصة فأخذها معها يستفتيان فيها أمر المؤمنين يقولون : إن رضىها لنا أمير المؤمنين ازدنا فيها رغبة ، وإن نهانا عنها رفضناها ؛ فلما قدما عليه قالوا : إنا بأرض أهل الكتاب ، وإنا نسمع منهم كلاماً تقشعر منه جلودنا ، أفأخذ منه أو نترك ؟ فقال : لعلكما كتبتما منه شيئاً ؟ فقالا : لا ، قال سأحدثكما : انطلقت في حياة النبي ﷺ حتى أتيت خيبر ، فوجدت يهودياً يقول قولاً أعجبني ؛ فقلت : هل أنت مكتبي بما تقول ؟ قال : نعم فاتيت بأديم ، فأخذ يملئ علي حتى كتبت في الأكرع ، فلما رجعت قلت : يا نبي الله وأخبرته . قال «اتني به» فانطلقت أرغب عن الشيء رجاء أن أكون جئت رسول الله ببعض ما يجب ؛ فلما أتيت به قال «أجلس اقرأ علي» فقرأت ساعة ، ثم نظرت إلى وجه رسول الله ﷺ ، فإذا هو يتلون ، فتحيرت من الفرق ، فما استطعت أن أجز منه حرفاً ، فلما رأى الذي بي رفعه ثم جعل يبيته رسماً رسماً فيمحوه بريقه ، وهو يقول «لا تبعوا هؤلاء فإنهم قد هوكوا وهوكوا» حتى مما آخره حرفاً حرفاً . قال عمر رضي الله عنه ، فلو علمت أنكما كتبتما منه شيئاً جعلتكما نكالا لهذه الأمة ، قالوا : والله ما نكتب منه شيئاً أبداً ؛ فخرجنا بصلاصفتها ، فحفرها لها ، فلم يالوا أن يعمقا ودفناها ، فكان آخر العهد منها ؛ وهكذا روى الثوري عن جابر بن يزيد الجعفي عن الشعبي عن عبد الله بن ثابت الأنصاري عن عمر بن الخطاب بنحوه ، وروى ابو داود في المراسيل من حديث أبي قلابة عن عمر بنحوه ، والله أعلم .

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى : اذكر لقومك يا محمد في قصصك عليهم من قصة يوسف إذ قال لأبيه ، وأبوه هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، كما قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار ، عن أبيه عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» انفراد باخراجه البخاري ، فرواه عن عبد الله بن محمد عن عبد الصمد . وقال البخاري أيضاً : حدثنا محمد ، أنا عبدة عن عبيد الله عن سعيد بن أبي سعيد ، عن أبي هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ ، أي الناس أكرم ؟ قال «أكرمهم عند الله أنقاهم» قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال «فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله» قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال «فعن معادن العرب تسألوني ؟» قالوا : نعم . قال «فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا» ثم قال : تابعه أبو أسامة عن عبيد الله .

وقال ابن عباس رؤيا الأنبياء وحى ، وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام أن الأحد عشر كوكباً عبارة عن أخوته ، وكانوا أحد عشر رجلاً سواه ، والشمس والقمر عبارة عن أمه وأبيه . روي هذا عن ابن عباس والضحاك وقتادة وسفيان الثوري وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة ، وقيل : ثمانين سنة ، وذلك حين رفع أبويه على العرش وهو سريره وإخوته بين يديه ﴿وخروا له سجداً﴾ وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً ﴿وقد جاء في حديث تسمية هذه الأحد عشر كوكباً ، فقال الإمام أبو جعفر بن جرير : حدثني علي بن سعيد الكندي ، حدثنا الحكم بن ظهير عن السدي عن عبد الرحمن بن سابط ، عن جابر قال : أتى النبي ﷺ رجل من يهود يقال له بستانة اليهودي ، فقال له : يا محمد أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف أنها ساجدة له ، ما أسأؤها ؟ قال : فسكت النبي ﷺ ساعة فلم يجبه بشيء ، ونزل عليه جبريل عليه السلام فأخبره بأسمائها ، قال : فبعث رسول الله ﷺ إليه فقال «هل أنت مؤمن إذا أخبرتك بأسمائها ؟» فقال : نعم . قال «جريان ، والطارق ، والذبال ، وذو الكنفات ، وقابس ، ووثاب ، وعمودان ، والفيلق ، والمصبيح ، والضروح ، وذو الفرج ، والضياء ، والنور» فقال اليهودي : إي والله أنها لأسأؤها .

ورواه البيهقي في الدلائل من حديث سعيد بن منصور عن الحكم بن ظهير . وقد روى هذا الحديث الحافظان أبو يعلى الموصلي وأبو بكر البزار في مسنديهما ، وابن أبي حاتم في تفسيره ، أما أبو يعلى فرواه عن أربعة من شيوخه عن الحكم بن ظهير ، وزاد : قال رسول الله ﷺ «لما رآها يوسف قصها على أبيه يعقوب ، فقال له أبوه : هذا أمر متشتت يجمعه الله من بعد ، - قال - والشمس أبوه والقمر أمه» تفرد به الحكم بن ظهير الفزاري وقد ضعفه الأئمة وتركه الأكثرون ؛ وقال الجورجاني : ساقط وهو صاحب حديث حسن يوسف ؛ ثم ذكر الحديث المروي عن جابر أن يهودياً سأل النبي ﷺ عن الكواكب التي رآها يوسف ، ما أسأؤها ؟ وأنه أجابه ، ثم قال : تفرد به الحكم بن ظهير ، وقد ضعفه الأربعة .

قَالَ يَبْنَئُ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لأبنيه يوسف حين قص عليه ما رأى من هذه الرؤيا التي تعبيرها خضوع إخوته له ، وتعظيمهم إياه تعظيماً زائداً بحيث يخرون له ساجدين إجلالاً واحتراماً وإكراماً ، فخشي يعقوب عليه السلام أن يحدث بهذا المنام ، أحداً من إخوته فيحسدونه على ذلك ، فيغنون له الغوائل حسداً منهم له ، ولهذا قال له ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ أي يجتالوا لك حيلة يردونك فيها ، ولهذا ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ قال ﴿إذا رأى أحدكم ما يجب فليحدث به ، وإذا رأى ما يكره فليتحول إلى جنبه الآخر ، وليتفل عن يساره ثلاثاً ، وليستعد بالله من شرها ، ولا يحدث بها أحداً فإنها لن تضره﴾ . وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنن من رواية معاوية بن حيدة ، القشيري أنه قال : قال رسول الله ﷺ «الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر ، فإذا عبرت وقعت» ومن هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر ، كما ورد في حديث «استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها ، فإن كل ذي نعمة محسود» .

وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رِبِّكَ وَيَعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُسِّرُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ

قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَاسْتَقْبَلَ إِنْ رَبَّكَ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لولده يوسف : إنه كما اختارك ربك وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك ﴿كذلك يجتبيك ربك﴾ أي يختارك ويصطفيك لنبوته ﴿ويعلمك من تأويل الأحاديث﴾ قال مجاهد وغير واحد : يعني تعبير الرؤيا ﴿ويتم نعمته عليك﴾ أي بارسالك والايحاء اليك ؛ ولهذا قال ﴿كما أتممها على أبويك من قبل إبراهيم﴾ وهو الخليل ﴿وإسحاق﴾ ولده وهو الذبيح في قول ، وليس بالرجيح ﴿إن ربك عليك حكيم﴾ أي هو أعلم حيث يجعل رسالته ، كما قال في الآية الأخرى .

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٍ لِّلْمُتَلَبِّينَ﴾ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا

أَيِّنَّا مَنَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَمْلِكُ لَكُمْ وَجَهً أَيْكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ

فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾

يقول تعالى : لقد كان في قصة يوسف وخبره مع إخوته آيات ، أي عبرة ومواعظ للسائلين عن ذلك المستخبرين عنه ، فإنه خبر عجب يستحق أن يخبر عنه ﴿إذا قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا﴾ أي حلفوا فيما يظنون والله ليوسف وأخوه ، يعنون بنيامين وكان شقيقه لأمه ﴿أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة﴾ أي جماعة ، فكيف أحب ذينك الاثنين أكثر من الجماعة ﴿إن أبانا لفي ضلال مبين﴾ يعنون في تقديمها علينا ، وحبته إياها أكثر منا . واعلم أنه لم يبق دليل على نوبة أخوة يوسف ، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك ، ومن الناس من يزعم أنهم أوحى إليهم بعد ذلك ، وفي هذا نظر ، ويحتاج مدعي ذلك إلى دليل ، ولم يذكره سوى قوله تعالى : ﴿قولوا أمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾ وهذا فيه احتمال لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم الأسباط ، كما يقال للعرب قبائل وللمعجم شعوب ، يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون ، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف ، ولم يبق دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحى إليهم ، والله أعلم ؛ ﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يملك لكم وجه أبيكم﴾ يقولون هذا الذي يزامكم في محبة أبيكم لكم أعدموه من وجه أبيكم ، ليخلوا لكم وحدكم ، إما بأن تقتلوه أو تلقوه في أرض من الأراضي تستريحوا منه ، وتخلوا أنتم

بأيكم ﴿وتكونوا من بعده قوماً صالحين﴾ فأضرموا التوبة قبل الذنب ﴿قال قائل منهم﴾ قال قتادة ومحمد بن إسحاق : وكان أكبرهم واسمه روييل . وقال السدي : الذي قال ذلك ، يهوذا . وقال مجاهد هو شمعون ﴿لا تقتلوا يوسف﴾ أي لا تصلوا في عداوته وبغضه إلى قتله ، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله لأن الله تعالى كان يريد منه أمراً لا بد من إمضائه وإتمامه من الإيحاء إليه بالنبوة ، ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها ، فصرفهم الله عنه بمقالة روييل فيه وإشارته عليهم بأن يلقوه في غيابة الحب وهو أسفل . قال قتادة وهي بئر بيت المقدس . يلتقطه بعض السيارية ﴿أي المارة من المسافرين فتستريحوا منه بهذا ولا حاجة إلى قتله﴾ ﴿إن كنتم فاعلين﴾ أي إن كنتم عازمين على ما تقولون . قال محمد بن إسحاق بن يسار : لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطعة الرحم ، وعقوق الوالد ، وقلة الرأفة بالصغير الضرع الذي لا ذنب له ، وبالكبير الغاني ذي الحق والحرمة والفضل ، وخطره عند الله مع حق الوالد على ولده ، ليفرقوا بينه وبين أبيه وحببيه على كبر سنه ورقة عظمه ، مع مكانه من الله عن أحبه طفلاً صغيراً ، وبين إبنه على ضعف قوته وصغر سنه وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه ، يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين ، فقد احتملوا أمراً عظيماً رواه ابن أبي حاتم من طريق سلمة بن الفضل عنه .

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ

لَحَفِظُونَ ﴿١٢﴾

لما تواطأوا على أخذه وطرحه في البئر كما أشار به عليهم أخوهم الكبير روييل ، جاءوا أباهم يعقوب عليه السلام فقالوا : ما بالك ﴿لا تأمننا على يوسف وإنا له لناصحون﴾ وهذه توطئة ودعوى ، وهم يريدون خلاف ذلك لما له في قلوبهم من الحسد لحب أبيه له ﴿أرسله معنا﴾ أي ابنته معنا (غداً نرتع ونلعب) وقرأ بعضهم بالياء ﴿يرتع ويلعب﴾ قال ابن عباس : يسمى وينشط ، وكذا قال قتادة والضحاك والسدي وغيرهم ﴿وإنا له لحافظون﴾ يقولون : ونحن نحفظه ونحوطه من أهلك .

قَالَ إِنِّي لِيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ

وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَسِرُونَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه يعقوب أنه قال لبنيه في جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعي في الصحراء ﴿إني ليحزنني أن تذهبوا به﴾ أي يشق علي مفارقتهم مدة ذهابكم به إلى أن يرجع ، وذلك لفرط محبته له لما يتوسم فيه من الخير العظيم وشمائل النبوة والكمال في الخلق والخلق صلوات الله وسلامه عليه . وقوله ﴿وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون﴾ يقول : وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعيكم فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون ، فأخذوا من فمه هذه الكلمة . وجعلوها عذرهم فيما فعلوه ، وقالوا مجيبين له عنها في الساعة الراحنة ﴿لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون﴾ يقولون : لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ونحن جماعة إنا إذا لخالكون عاجزون .

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتَأْتِيَنَّهُم بِآمِرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

يقول تعالى : فلما ذهب به إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك ﴿واجتمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب﴾ هذا فيه تعظيم لما فعلوه ، أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب وقد أخذوه من عند أبيه فيما يظهره له إكراماً له ، وبسطاً وشرحاً لصدره ، وإدخالاً للسرور عليه ، فيقال إن يعقوب عليه السلام لما بعثه معهم ضمه إليه وقبله ودعا له ؛ وذكر السدي وغيره أنه لم يكن بين إكرامهم له وبين إظهار الأذى له إلا أن غابوا عن عين أبيه وتواروا عنه ، ثم شعروا يؤذونه بالقول من شتم ونحوه ، والفعل من ضرب ونحوه ؛ ثم جاءوا به إلى ذلك الجب الذي اتفقوا على رميه فيه ، فربطوه بجبل ودلوه فيه ، فكان إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشمته ، وإذا تشبث بحافات البئر ضربوا على يديه ، ثم قطعوا به

الحبل من نصف المسافة ، فسقط في الماء فغمره ، فصعد إلى صخرة تكون في وسطه يقال لها الراغوفة ، فقام فوقها .
وقوله ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنْبِتْنَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ، يقول تعالى ذاكراً لطفه ورحمته وعائدته وإنزاله اليسر في حال العسر : إنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق تطيباً لقلبه وتثبيتاً له ، إنك لا تحزن مما أنت فيه ، فإن لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً ، وسينصرك الله عليهم ويعليك ويرفع درجاتك وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع ،
وقوله ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ . قال مجاهد وقتادة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإيحاء الله إليه . وقال ابن عباس : ستنبتهم بصنيعهم هذا في حقل ، وهم لا يعرفونك ولا يستشعرون بك ؛ كما قال ابن جرير : حدثني الحارث ، ثنا عبد العزيز ، ثنا صدقة بن عباد الأسدي عن أبيه ، سمعت ابن عباس يقول : لما دخل إخوة يوسف عليه فعرفهم وهم له منكرون ، قال : جيء بالصواع فوضعه على يده ، ثم نقره فطن ، فقال : إنه ليخبرني هذا الجمام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف ، يديه دونكم ، وأنكم انطلقتم به وألقيتموه في غيابة الجب ، قال : ثم نقره فطن ، قال : فأتيتم أباكم فقلتم : إن الذئب أكله وجثتم على قميصه بدم كذب ، قال : فقال بعضهم لبعض : إن هذا الجمام ليخبره بخبركم . قال ابن عباس : فلا نرى هذه الآية نزلت إلا فيهم ﴿لَتُنْبِتْنَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ .

وَجَاءَ وَآبَاهُمْ عِشَاءَ يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ

وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءَهُ وَعَلَى قَمِيصِهِ يَدْمٌ كَذِبٌ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا

فَصَبِّرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن الذي اعتمده إخوة يوسف بعد ما القوه في غيابة الجب ، ثم رجعوا إلى أبيهم في ظلمة الليل ليكون ويظهرون الأسف والحرج على يوسف ويتغمون لأبيهم ، وقالوا معتدلين عما وقع فيما زعموا ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي نترامى ، ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا﴾ أي ثيابنا وأمتعتنا ، ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ ، وهو الذي كان قد جزع منه وحذر عليه .
وقوله ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ تल्प عظيم في تقرير ما يحاولونه ، يقولون : ونحن نعلم أنك لا تصدقنا والحالة هذه لو كنا عندك صادقين ، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك ، لأنك خشيت أن يأكله الذئب ، فأكله الذئب ، فانت معذور في تكذيبك لنا لغرابية ما وقع ، وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا ﴿وَجَاءَهُ عَلَى قَمِيصِهِ بَدْمٌ كَذِبٌ﴾ أي مكذوب مفترى ، وهذا من الأفعال التي يؤكدون بها ما تمالأوا عليه من المكيدة . وهو أنهم عمدوا إلى سخلة فيها ذكره مجاهد والسدي وغير واحد ، فذبحوها ولطخوا ثوب يوسف بدمها ، موهمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب ، وقد أصابه من دمه ، ولكنهم نسوا أن يخرقه ، فلماذا لم يرح هذا الصنيع على نبي الله يعقوب ، بل قال لهم معرضاً عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من ليسهم عليه ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِّرْ جَمِيلٌ﴾ أي فسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي اتفقت عليه حتى يفرجه الله بعونه ولطفه ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ أي على ما تذكرون من الكذب والمحال .
وقال الثوري عن سماك ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ﴿وَجَاءَهُ عَلَى قَمِيصِهِ بَدْمٌ كَذِبٌ﴾ قال : لو أكله السبع لخرق القميص ؛ وكذا قال الشعبي والحسن وقتادة وغير واحد . وقال مجاهد : الصبر الجميل الذي لا جزع فيه .
وروى هشيم عن عبد الرحمن بن يحيى ، عن حبان بن أبي حيلة ، قال : سئل رسول الله ﷺ عن قوله ﴿فَصَبِّرْ جَمِيلٌ﴾ فقال : صبر لا شكوى فيه ، وهذا مرسل . وقال عبد الرزاق : قال الثوري ؛ عن بعض أصحابه انه قال : ثلاث من الصبر : ان لا تحدث بوجعك ، ولا بمصيبتك ، ولا تزكي نفسك وذكر البخاري ههنا حديث عائشة في الإفك حتى ذكر قولها : والله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف ﴿فَصَبِّرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ .

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبشَرِي هَذَا غلْمٌ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِمَا عَمِلُوا ﴿١٩﴾

وَسْرُوهُ يَشْمَنُ بِحَنِينٍ دَرَّهَمٌ مَعْدُودَةٌ وَكَأَنُو فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى مخبراً عما جرى ليوسف عليه السلام حين الفاه إخوته وتركوه في ذلك الجب وحيداً فريداً ، فمكث في

البشر ثلاثة أيام فيها قاله أبو بكر بن عياش ، وقال محمد بن إسحاق : لما ألقاه إخوته جلسوا حول البئر يومهم ذلك ، ينظرون ماذا يصنع وما يصنع به ، فساق الله له سيارة ، فنزلوا قريباً من تلك البئر ، وأرسلوا واردهم وهو الذي يتطلب لهم الماء ، فلما جاء ذلك البئر وأدلى دلوه فيها ، تثبت يوسف عليه السلام فيها فأخرجه واستبشر به ، وقال ﴿يا بشرى هذا غلام﴾ . وقرأ بعض القراء يا بشراي ، فزعم السدي انه اسم رجل ، ناداه ذلك الرجل الذي أدلى دلوه معلماً له أنه أصاب غلاماً ، وهذا القول من السدي غريب لأنه لم يسبق إلى تفسير هذه القراءة بهذا إلا في رواية عن ابن عباس ، والله أعلم ؛ وإنما معنى القراءة على هذا النحو يرجع إلى القراءة الأخرى ، ويكون قد أضاف البشري إلى نفسه وحذف باء الإضافة ، وهو يريد بها كما تقول العرب : يا نفس اصبري ويا غلام أقبل ، بحذف حرف الإضافة ، ويجوز الكسر حينئذ والرفع ، وهذا منه ، وتفسرها القراءة الأخرى يا بشراي ، والله أعلم .

وقوله ﴿وأسروه بضاعة﴾ أي وأسره الواردون من بقية السيارة وقالوا : اشتريناه وتبضعناه من أصحاب الماء مخافة أن يشاركونهم فيه إذا علموا خبره ، قاله مجاهد والسدي وابن جرير ، هذا قول ، وقال العوفي عن ابن عباس قوله ﴿وأسروه بضاعة﴾ يعني إخوة يوسف أسروا شأنه ، وكنتموا أن يكون أخاهم ، وكنتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته ، واختار البيهقي فذكره إخوته لوارد القوم ، فنأدى أصحابه ﴿يا بشرى هذا غلام﴾ بياع فباعه إخوته .

وقوله ﴿والله عليم بما يعملون﴾ أي عليم بما يفعله إخوة يوسف ومشتروه ، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه ، ولكن له حكمة وقدر سابق ، فترك ذلك ليمضي ما قدره وقضاه ﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾ وفي هذا تعريض لرسوله محمد ﷺ وإعلام له بأنه عالم بأذى قومك لك ، وأنا قادر على الإنكار عليهم ، ولكنني ساملي لهم ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم ، كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته .

وقوله ﴿وشروه بثمن بخس دراهم معدودة﴾ يقول تعالى : وباعه إخوته بثمن قليل . قاله مجاهد وعكرمة ، والبخس : هو النقص ، كما قال تعالى ﴿فلا يخاف بخساً ولا رهقاً﴾ أي اعتاض عنه إخوته بثمن دون قليل ، ومع ذلك كانوا فيه من الزاهدين أي ليس لهم رغبة فيه ، بل لو سألوه بلا شيء لأجابوا . قال ابن عباس ومجاهد والضحاك : إن الضمير في قوله ﴿وشروه﴾ عائد على إخوة يوسف . وقال قتادة : بل هو عائد على السيارة . والأول أقوى ، لأن قوله ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾ إنما أراد إخوته لا أولئك السيارة ، لأن السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة ، ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه ، فترجح من هذا أن الضمير في ﴿وشروه﴾ إنما هو لإخوته . وقيل : المراد بقوله ﴿بخس﴾ الحرام . وقيل : الظلم ، هذا وإن كان كذلك لكن ليس هو المراد هنا ، لأن هذا معلوم يعرفه كل أحد أن ثمنه حرام على كل حال وعلى كل أحد لأنه نبي ابن نبي ابن خليل الرحمن فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، وإنما المراد هنا بالبخس الناقص أو الزیوف أو كلاهما ، أي إنهم إخوته وقد باعوه ، ومع هذا بأنقص الأثمان ، رفذا قال ﴿دراهم معدودة﴾ ، فعن ابن مسعود رضي الله عنه : باعوه بعشرين درهماً ؛ وكذا قال ابن عباس ونوف البكالي والسدي وقتادة وعطية العوفي ، وزاد اقتسموها درهمين درهمين . وقال مجاهد : اثنان وعشرون درهماً . وقال محمد بن إسحاق وعكرمة : أربعون درهماً . وقال الضحاك في قوله ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾ وذلك أنهم لم يعلموا نبوته ومنزلته عند الله عز وجل ، وقال مجاهد : لما باعوه جعلوا يتبعونهم ويقولون لهم : استوتقوا منه لا يأبق ، حتى وقفوه بمصر فقال : من يتاعني وليبشر ؟ فاشتراه الملك وكان مسلماً .

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَيْتَهُ مِنْ مِصْرَ لَا تَرْأَيْتُمْ أَكْرَمَىٰ مِثْلَهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ

فِي الْأَرْضِ وَنَلَّمْنَاهُ مِنْ نَاوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلِيمٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ وَلَمَّا بَلَغَ

أَشُدَّهُ عَيْنَهُ حَكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْرِي الْمَحْسِنِينَ ﴿١٦﴾

نجبر تعالى بالظافه بيوسف عليه السلام أنه قبض له الذي اشتراه من مصر حتى اعتني به وأكرمه ، وأوصى أهله به ، وتوسم فيه الخير والصلاح ؛ فقال لامرأته ﴿أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولذا﴾ وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها وهو الوزير . حدثنا العوفي عن ابن عباس وكان اسمه قطيفير ، وقال محمد بن إسحاق : إسمه أظفير بن روحيب وهو العزيز ، وكان على خزائن مصر ، وكان الملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق ، قال : واسم امرأته راعيل

بنت رعايل ، وقال غيره : اسمها زليخا ، وقال محمد بن إسحاق أيضاً ، عن محمد بن السائب ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس : كان الذي باعه بمصر مالك بن ذعر بن قريب بن عنقا بن مديان بن إبراهيم ، فالله أعلم . وقال أبو إسحاق عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود أنه قال : أفرس الناس ثلاثة : عزيز مصر حين قال لامرأته ﴿أكرمي مشواه﴾ ، والمرأة التي قالت لأبيها ﴿يا أبت استاجرهم﴾ الآية ؛ وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنها . يقول تعالى : كما أنقذنا يوسف من إخوته ﴿كذلك مكنا ليوسف في الأرض﴾ يعني بلاد مصر ﴿ولنعلمه من تأويل الأحاديث﴾ .

قال مجاهد والسدي هو تعبير الرؤيا ﴿والله غالب على أمره﴾ أي إذا أراد شيئاً فلا يرد ولا يمانع ولا يخالف ، بل هو الغالب لما سواه . قال سعيد بن جبير في قوله ﴿والله غالب على أمره﴾ أي فعال لما يشاء . وقوله ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ يقول : لا يدرون حكمته في خلقه وتلفه وفعله لما يريد ، وقوله ﴿ولما بلغ﴾ أي يوسف عليه السلام ﴿أشده﴾ أي استكمل عقله وتم خلقه ﴿آتيه حكماً وعلماً﴾ يعني النبوة أنه حباه بها بين أولئك الأقوام ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ أي إنه كان محسناً في عمله عاملاً بطاعة الله تعالى ، وقد اختلف في مقدار المدة التي بلغ فيها أشده ؛ فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : ثلاث وثلاثون سنة . وعن ابن عباس : بضع وثلاثون . وقال الضحاك : عشرون ، وقال الحسن : أربعون سنة . وقال عكرمة : خمس وعشرون سنة . وقال السدي : ثلاثون سنة . وقال سعيد بن جبير : ثمانين سنة . وقال الإمام مالك وربيع بن زيد بن أسلم والشعبي : الأشد الحلم ، وقيل غير ذلك ، والله أعلم .

وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ . وَعَلَقَتْ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْت لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهٗ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ

إِنَّهٗ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر ، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه ، فراودته عن نفسه ، أي حاولته على نفسه ودعته إليها ، وذلك أنها أحبته حباً شديداً لجماله وحسنه وبهائه ، فحملها ذلك على أن تحملت له وغلقت عليه الأبواب ودعته إلى نفسها ، ﴿وقالت هيت لك﴾ فامتنع من ذلك أشد الامتناع ، و﴿قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي﴾ وكانوا يطلقون الرب على السيد الكبير ، أي أن بملك ربي أحسن مثواي أي منزلي ، وأحسن إلي فلا أقابله بالفاحشة في أهله ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ ؛ قال ذلك مجاهد والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم . وقد اختلف القراء في قوله ﴿هيت لك﴾ فقرأه كثيرون بفتح الهاء وإسكان التاء ؛ وقال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : معناه أنها تدعوه إلى نفسها . وقال علي بن أبي طلحة والعمري عن ابن عباس : هيت لك ، تقول هلم لك ؛ وكذا قال زر بن حبیش وعكرمة والحسن وقتادة . قال عمرو بن عتبة عن الحسن : وهي كلمة بالسريانية ، أي عليك . وقال السدي : هيت لك ، أي هلم لك ، وهي بالقطيعة . وقال مجاهد : هي لغة عربية تدعوه بها . وقال البخاري : وقال عكرمة : هيت لك ، أي هلم لك بالخورانية . هكذا ذكره معلقاً .

وقد أسنده الإمام جعفر بن جرير : حدثني أحمد بن سهل الواسطي ، حدثنا قرة بن عيسى ، حدثنا النضر بن علي الجزري عن عكرمة مولى ابن عباس في قوله ﴿هيت لك﴾ قال : هلم لك ، قال : هي بالخورانية ، وقال أبو عبيد القاسم بن سلام ، وكان الكسائي يجب هذه القراءة ، يعني هيت لك ، ويقول : هي لغة لأهل حوران وقعت إلى أهل الحجاز ، ومعناها تعال . وقال أبو عبيدة : سألت شيخاً عالماً من أهل حوران ، فذكر أنها لغتهم يعرفها ؛ واستشهد الإمام ابن جرير على هذه القراءة بقول الشاعر لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه :

أبلغ أمير المؤمنين أذى العراق إذا أتينا
إن العراق وأهله عنق إليك فهيت هيتا

يقول : فتعال واقترب ، وقرأ ذلك آخرون هتت لك بكسر الهاء والهمز وضم التاء ، بمعنى تهبأت لك من قول القائل هتت بالأمر أهية هتة ، وعن روى عنه هذه القراءة : ابن عباس وأبو عبد الرحمن السلمي وأبو وائل وعكرمة وقتادة ، وكلهم يفسرها بمعنى تهبأت لك . قال ابن جرير : وكان أبو عمرو والكسائي ينكران هذه القراءة ، وقرأ عبد الله بن إسحاق : هيت بفتح الهاء وكسر التاء ، وهي غريبة ، وقرأ آخرون منهم عامة أهل المدينة هيت بفتح الهاء وضم التاء ، وأنشد قول الشاعر :

ليس قسومي بالأبعدين إذا ما قال داع من العشييرة هيت
قال عبد الرزاق : أنبأنا الثوري ، عن الأعمش ، عن أبي وائل ، قال : قال ابن مسعود ، وقد سمع القراء :
سمعتهم متقاربين ، فافرقوا كما علمتم ، وإياكم والتنطع والإختلاف ، وإنما هو كقول أحدكم : هلم وتعال . ثم قرأ عبد
الله : هيت لك ، فقال : يا أبا عبد الرحمن إن ناسا يقرءونها هيت . قال عبد الله : أن أقرأها كما علمت أحب إليّ . وقال
ابن جرير : حدثني ابن وكيع ، حدثنا ابن عيينة عن منصور ، عن أبي وائل ، قال : قال عبد الله : هيت لك ، فقال له
مسروق : إن ناسا يقرءونها : هيت لك ؛ فقال : دعوني فأني أقرأ كما أقرئت ؛ أحب إليّ ، وقال أيضاً : حدثني المثنى ،
حدثنا آدم بن أبي إياس ، حدثنا شعبة عن شقيق ، عن ابن مسعود ، قال : هيت لك بنصب الهاء والتاء ، ولا تهمز .
وقال آخرون : هيت لك بكسر الهاء ، وإسكان الياء ، وضم التاء . قال أبو عبيد معمر بن المثنى : هيت لا تثنى ، ولا
تجمع ، ولا تؤنث ، بل يخاطب الجميع بلفظ واحد ، فيقال : هيت لك ، وهيت لكم ، وهيت لكما ، وهيت لكن ،
وهيت لهن .

وَقَدَّ هَمَّتْ بِهِ. وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ. كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا

الْمُخْلِصِينَ ﴿١٤﴾

اختلفت أقوال الناس وعباراتهم في هذا المقام ، وقد روي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبيرة وطائفة من السلف
في ذلك ما رواه ابن جرير وغيره ، والله أعلم . وقيل : المراد بهم ما خطرنا حديث النفس ، حكاة البغوي عن بعض
أهل التحقيق ، ثم أورد البغوي هنا حديث عبد الرزاق عن معمر ، عن همام ، عن أبي هريرة رضي الله عنه . قال :
قال رسول الله ﷺ «يقول الله تعالى : إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها ، وإن
هم بسية فلم يعملها فاكتبوها حسنة ، وإنما تركها من جرأتي ، فإن عملها فاكتبوها بمثلها ؛ وهذا الحديث مخرج في
الصحيحين وله ألفاظ كثيرة هذا منها . وقيل : هم بضربها . وقيل : تمنأها زوجة . وقيل : هم بها لولا أن رأى برهان ربه
أي فلم يهم بها ؛ وفي هذا القول نظر من حيث العربية ، حكاة ابن جرير وغيره . وأما البرهان الذي رآه فيه أقوال
أيضاً ، فعن ابن عباس وسعيد ومجاهد وسعيد بن جبيرة ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة وأبي صالح والضحاك ومحمد بن
إسحاق وغيرهم : رأى صورة أبيه يعقوب عاضاً على أصبعه بضمه . وقيل عنه في رواية : فضرب في صدر يوسف . وقال
العوفي عن ابن عباس : رأى خيال الملك يعني سيده ، وكذا قال محمد بن إسحاق فيما حكاة عن بعضهم : وإنما هو خيال
قطير سيده حين دنا من الباب .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا وكيع عن أبي مودود ، سمعت من محمد بن كعب القرظي . قال : رفع
يوسف رأسه إلى سقف البيت ، فإذا كتاب في حائط البيت ﴿ولا تقرّبوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾ ؛ وكذا رواه أبو
معشر المدني عن محمد بن كعب . وقال عبد الله بن وهب : أخبرني نافع بن يزيد ، عن أبي صخر ، قال : سمعت
القرظي يقول : ما البرهان الذي رآه يوسف ثلاث آيات من كتاب الله ﴿إن عليكم لحافظين﴾ الآية ، وقوله ﴿وما تكون
في شأن﴾ الآية ؛ وقوله ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ قال نافع : سمعت أبا هلال يقول مثل قول القرظي ؛
وزاد آية رابعة ﴿ولا تقرّبوا الزنا﴾ . وقال الأوزاعي رأى آية من كتاب الله في الجدار تنهاه عن ذلك . قال ابن جرير :
والصواب أن يقال : أنه رأى آية من آيات الله تزجره عما كان هم به ، وجائر أن يكون صورة يعقوب ، وجائر أن يكون
صورة الملك ، وجائر أن يكون ما رآه مكتوباً من الزجر عن ذلك ، ولا حجة قاطعة على تعيين شيء من ذلك ؛ فالصواب
أن يطلق كما قال الله تعالى . وقوله ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء﴾ أي كما أريته برهانا صرفه عما كان فيه ،
كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره ﴿إنه من عبادنا المخلصين﴾ أي من المجتنبين المطهرين المختارين المصطفين
الأخيار ، صلوات الله وسلامه عليه .

وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَالْفَيْسَا سَيْدَهَا لَدَا الْبَابِ

قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ قَالَ هِيَ زَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ

أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦٧﴾ فَلَمَّارَةً أَقْبِصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذُنُوبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٦٩﴾

يخبر تعالى عن حالها حين خرجا يستبقان إلى الباب : يوسف هارب ، والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت ، فلحقته في أثناء ذلك فأمسكت بقميصه من ورائه ، فقذته قدا فظيعا ، يقال : إنه سقط عنه واستمر يوسف هاربا ذاهبا ، وهي في أثره ، فألفيا سيدها وه زوجها عند الباب ، فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها ، وقالت لزوجها متنصلة وقاذفة يوسف بردائها ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءا ﴾ أي فاحشة ، ﴿ إلا أن يسجن ﴾ أي يجبس ، ﴿ أو عذاب أليم ﴾ أي يضرب ضربا شديدا موجعا . فعند ذلك انتصر يوسف عليه السلام بالحق ، وتبرأ مما رمته به من الخيانة ، و﴿ قال ﴾ بارا صادقا ﴿ هي راودتني عن نفسي ﴾ وذكر أنها اتبعته تحبذ به إليها حتى قادت قميصه ﴿ وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل ﴾ أي من قدامه ﴿ فصدقت ﴾ أي في قولها أنه راودها عن نفسها ، لأنه يكون لما دعاها وأبت عليه دفعته في صدره ، فقذت قميصه فيصح ما قالت ﴿ وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين ﴾ وذلك يكون كما وقع لما هرب منها وتطلبت ، أمسكت بقميصه من ورائه لترده إليها فقذت قميصه من ورائه ؛ وقد اختلفوا في هذا الشاهد : هل هو صغير أو كبير ؟ على قولين لعلماء السلف ، فقال عبد الرزاق ؛ أخبرنا إسرائيل عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾ قال ذو الحجة ، وقال الثوري ، عن جابر ، عن ابن أبي مليكة ، عن ابن عباس : كان من خاصة الملك ؛ وكذا قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم : انه كان رجلا . وقال زيد بن أسلم والسدي : كان ابن عمها . وقال ابن عباس : كان من خاصة الملك . وقد ذكر ابن إسحاق ان زليخا كانت بنت أخت الملك الريان بن الوليد .

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله ﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾ قال : كان صبيا في المهدي ؛ وكذا روي عن أبي هريرة وهلال بن يساف والحسن وسعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم أنه كان صبيا في الدار ؛ واختاره ابن جرير . وقد ورد فيه حديث مرفوع فقال ابن جرير : حدثنا الحسن بن محمد ، حدثنا عفان ، حدثنا حماد هو ابن سلمة ، أخبرني عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال ﴿ تكلم أربعة وهم صغار ﴾ فذكر فيهم شاهد يوسف ؛ ورواه غيره عن حماد بن سلمة ، عن عطاء ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس انه قال ﴿ تكلم أربعة وهم صغار : ابن ماشطة بنت فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى بن مريم . وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد : كان من أمر الله تعالى ، ولم يكن إنسيا ؛ وهذا قول غريب .

وقوله ﴿ فلما رأى قميصه قد من دبر ﴾ أي لما تحقق زوجها صدق يوسف وكذبها فيها فذفته ورمته به ﴿ قال إنه من كيدكن ﴾ أي أن هذا البهت واللطخ الذي لطخت عرض هذا الشاب به من جملة كيدكن ﴿ إن كيدكن عظيم ﴾ ، ثم قال أمرا ليوسف عليه السلام بكتمان ما وقع ﴿ يوسف أعرض عن هذا ﴾ أي اضرب عن هذا صفحا ، أي فلا تذكره لاحد . ﴿ واستغفري لذنبك ﴾ يقول لامراته وقد كان لين العريكة سهلا أو أنه عذرها لأنها رأت ما لا صبر لها عنه ، فقال لها : استغفري لذنبك أي الذي وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب ثم قذفه بما هو بريء منه ﴿ إنك كنت من الخاطئين ﴾ .

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتْدَهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٦٦﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لهنَّ مَتَكًا وَآتَتْ كُلَّ وَجِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّارَاتُهُنَّ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَسْبُ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٦٧﴾ قَالَتِ فَمَا لَكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّ فِيهِ وَلَقَدْ رُودْنَهُ عَنْ نَفْسِهِ فَأَسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَاءَ أُمُورٍ لَّيَسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٦٨﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي

إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبَبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٦﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ فَصَرَفَ عَنْهُمْ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُمْ هُمُ السَّمِيعُ

الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾

يخبر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز ، شاع في المدينة وهي مصر حتى تحدث به الناس ﴿وقال نسوة في المدينة﴾ مثل نساء الكبراء والأمراء ، يتكرون على امرأة العزيز وهو الوزير ويعين ذلك عليها ﴿امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه﴾ أي تحاول غلامها عن نفسه وتدعوه إلى نفسها ﴿قد شغفها حباً﴾ أي قد وصل حبه إلى شغاف قلبها هو غلافه . قال الضحاك عن ابن عباس : الشغف الحب القاتل ، والشغف دون ذلك ، والشغاف حجاب القلب ﴿إننا لتراها في ضلال مبين﴾ أي في صنعها هذا من حبها فتاها ومرادتها إياه عن نفسه ، ﴿فلما سمعت بمكرهن﴾ قال بعضهم : بقولهن ذهب الحب بها ، وقال محمد بن إسحاق : بل بلغهن حسن يوسف ، فأحببن أن يرينه ، فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته ، فعند ذلك ﴿أرسلت إليهن﴾ أي دعتهن إلى منزلها لتضيفهن ﴿وأعدت لهن متكاً﴾ . قال ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد والحسن والسدي وغيرهم : هو المجلس المعد فيه مفارش ، وغاد ، وطعام فيه ما يقطع بالسكاكين من أترج ونحوه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿وآتت كل واحدة منهن سكينة﴾ وكان هذا مكيدة منها ومقابلة لهن في احتياهن على رؤيته ﴿وقالت اخرج عليهن﴾ وذلك أنها كانت قد خباته في مكان آخر ﴿فلما﴾ خرج ﴿ورأينه أكبر منه﴾ أي أعظمه أي أعظم شأنه ، وأجللن قدره ، وجعلن يقطعن أيديهن دهشاً برؤيته ، وهن يظنن أنهن يقطعن الأترج بالسكاكين ، والمراد أنهن حزنن أيديهن بها ، قاله غير واحد ، وعن مجاهد وقتادة : قطعن أيديهن حتى ألقينها ، فإله أعلم .

وقد ذكر غير واحد أنها قالت لهن بعد ما أكلن وطابت أنفسهن ، ثم وضعت بين أيديهن أترجاً وآتت كل واحدة منهن سكينة : هل لكن في النظر إلى يوسف ؟ قلن : نعم ، فبعثت إليه تأمره أن اخرج إليهن ، فلما رأينه جعلن يقطعن أيديهن ، ثم أمرته أن يرجع ليرينه مقبلاً ومدبراً ، فرجع وهن يحزنن في أيديهن ، فلما أحسن بالأم جعلن يولولن ، فقالت : أنتن من نظرة واحدة فعلتن هذا ، فكيف الأم أنا ؟ ﴿فقلن حاش الله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم﴾ ثم قلن لها : وما نرى عليك من لوم بعد هذا الذي رأينا ، لأنهن لم يرين في البشر شبيهه ولا قريباً منه ، فإنه عليه السلام كان قد أعطي شطر الحسن كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح في حديثه الإسراء أن رسول الله ﷺ مر بيوسف عليه السلام في الساء الثالثة ، قال ﴿فلذا هو قد أعطي شطر الحسن﴾ وقال حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ ﴿أعطي يوسف وأمه شطر الحسن﴾ . وقال سفيان الثوري ، عن أبي إسحاق ، عن أبي الأحوص ، عن عبد الله بن مسعود قال : أعطي يوسف وأمه ثلث الحسن . وقال أبو إسحاق أيضاً ، عن أبي الأحوص ، عن عبد الله ، قال : كان وجه يوسف مثل البرق ، وكانت المرأة إذا آتته لحاجة غطى وجهه مخافة أن تفتتن به . ورواه الحسن البصري مرسلًا عن النبي ﷺ أنه قال ﴿أعطي يوسف وأمه ثلث حسن أهل الدنيا ، وأعطي الناس الثلثين﴾ ، أو قال ﴿أعطي يوسف وأمه الثلثين والناس الثلث﴾ . وقال سفيان ، عن منصور ، عن مجاهد عن ربيعة الجرشية قال : قسم الحسن نصفين فأعطي يوسف وأمه سارة نصف الحسن ، والنصف الآخر بين سائر الخلق .

وقال الإمام أبو القاسم السهيلي : معناه أن يوسف عليه السلام كان على النصف من حسن آدم عليه السلام ، فإن الله خلق آدم بيده على أكمل صورة وأحسنها ، ولم يكن في ذريته من يوازيه في جماله ، وكان يوسف قد أعطي شطر حسنه ، فلهذا قال هؤلاء النسوة عند رؤيته ﴿حاش لله﴾ . قال مجاهد وغير واحد : معاذ الله ﴿ما هذا بشراً﴾ ، وقرأ بعضهم ما هذا بشري أي بمشترى بشراء ﴿إن هذا إلا ملك كريم﴾ قالت فذلكن الذي لمتني فيه ﴿تقول هذا معتذرة إليهن بأن هذا حقيق أن يجب لجماله وكماله ، ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾ أي فامتنع . قال بعضهم : لما رأين جماله الظاهر أخبرتني بصفاته الحسنة التي تخفى عنهن ، وهي العفة مع هذا الجمال ، ثم قالت تتوعده ﴿ولكن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين﴾ فعند ذلك استعاذ يوسف عليه السلام من شرهن وكيدهن ، ﴿وقال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه﴾ أي من الفاحشة ﴿وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن﴾ أي إن وكلتني إلى نفسي فليس لي منها قدرة ولا أملك لها ضراً ولا نفعاً إلا بحولك وقوتك ، أنت المستعان عليك التكلان ، فلا تكلني إلى نفسي ﴿أصب إليهن وأكن من الجاهلين فاستجاب له ربه﴾ الآية ، وذلك أن يوسف عليه السلام عصمه الله عصمة عظيمة ، وعما فامتنع منها أشد الامتناع ، واختار السجن على ذلك ، وهذا في غاية مقامات الكمال أنه مع شبابه وجماله وكماله وتدعوه سيدته ،

وهي امرأة عزيز مصر ، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال والرياسة ، ويمتنع من ذلك ويختار السجن على ذلك خوفاً من الله ورجاء ثوابه .

ولهذا ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ، ورجل دعتة امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه» .

ثُمَّ بَدَأَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَجُنُّهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿٣٥﴾

يقول تعالى : ثم ظهر لهم من المصلحة فيما راوه أنهم يسجنونه الى حين ، أي الى مدة ، وذلك بعد ما عرفوا براءته وظهرت الآيات ، وهي الأدلة على صدقه في عفته ونزاهته ، وكأنهم - والله أعلم - إنما سجنوه لما شاع الحديث إيماناً أنه راودها عن نفسها وأنهم سجنوه على ذلك . ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة امتنع من الخروج حتى تبيين براءته مما نسب إليه من الخيانة . فلما تقرر ذلك ، خرج وهو نقي العرض صلوات الله عليه وسلامه . وذكر السدي أنهم إنما سجنوه لثلاث شيع ما كان منها في حقه ، وبيراً عرضه فيفضحها .

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ

الطَّيْرُ مِنْهُ نَبْتَاتًا وَيْلَهُ إِنَّا لَنَرِيكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾

قال قتادة : كان أحدهما ساقى الملك ، والآخر خيازه . قال محمد بن إسحاق : كان اسم الذي على الشراب نبوا والآخر مجلث . قال السدي : كان سبب حبس الملك إياهما أنه توهم أنها عمالاً على سمه في طعامه وشرابه ، وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر في السجن بالجدود والأمانة ، وصدق الحديث ، وحسن السمات ، وكثرة العبادة ، صلوات الله عليه وسلامه . ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن ، وعبادة مرضاهم ، والقيام بحقوقهم . ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن تألفا به وأحباها حباً شديداً وقالوا له : والله لقد أحببناك حباً زائداً . قال : بارك الله فيكما ، إنه ما أحبني أحد إلا دخل علي من محبته ضرر ، أحببني عمتي فدخل علي الضرر بسببها ، وأحببني أبي فأوديت بسببه ، وأحببني امرأة العزيز فكذلك ، فقالا : والله ما نستطيع إلا ذلك ، ثم إنهما رأيا مناماً فرأى الساقى أنه يعصر خمراً يعني عبناً ، وكذلك هي في قراءة عبد الله بن مسعود : إني أراني أعصر عبناً .

ورواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن سنان ، عن يزيد بن هارون عن شريك ، عن الأعمش ، عن زيد بن وهب ، عن ابن مسعود أنه قرأها : أعصر عبناً : وقال الضحاك في قوله ﴿إني أراني أعصر خمراً﴾ يعني عبناً ، قال : وأهل عمان يسمون العنب خمراً ، وقال عكرمة : قال له : إني رأيت فيها يرى النائم أني غرست حبة من عنب ، فنبت فخرج فيها عناقيد ، فعصرتهم ثم سقيتهم الملك ؛ فقال : تمكث في السجن ثلاثة أيام ثم تخرج فتسقيه خمراً ؛ وقال الآخر وهو الخياز ﴿إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبثاً وتأويله﴾ الآية ؛ والمشهور عند الأكثرين ما ذكرناه أنها رأيا مناماً وطلبا تعبيرة . وقال ابن جرير : حدثنا وكيع وابن حميد قالوا : حدثنا جرير عن عمارة بن القعقاع عن إبراهيم عن عبد الله ابن مسعود قال : ما رأى صاحباً يوسف شيئا ، إنما كان تحالماً ليجرى عليه .

قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا لَنْبَأُ ثَمَامٍ بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مَعَ عَلَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ

مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَأَتَيْتُكُمْ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ

لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾

يخبرهما يوسف عليه السلام أنها مهما رأيا في المنام من حلم فإنه عارف بتفسيره ، ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه ، ولهذا قال ﴿ لا يأتیکما طعام ترزقانه إلا نباتکما بتأويله ﴾ . ومجاهد : يقول ﴿ لا يأتیکما طعام ترزقانه ﴾ في يومکما ﴿ إلا نباتکما بتأويله قبل أن يأتیکما ﴾ ؛ وكذا قال السدي . وقال ابن أبي حاتم رحمه الله : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا محمد بن العلاء ، حدثنا محمد بن يزيد شيخ له ، حدثنا رشدين عن الحسن بن ثوبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : ما أدري لعل يوسف عليه السلام كان يعتاق وهو كذلك ، لأنني أجد في كتاب الله حين قال للرجلين ﴿ لا يأتیکما طعام ترزقانه إلا نباتکما بتأويله ﴾ قال : إذا جاء الطعام حلوا أو مرا اعتاق عند ذلك . ثم قال ابن عباس : إنما علم فعلم ، وهذا أثر غريب ، ثم قال : وهذا إنما هو من تعليم الله إياي ، لأنني اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر ، فلا يرجون ثواباً ولا عقاباً في المعاد ﴿ واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴾ الآية ؛ يقول : هجرت طريق الكفر والشرك ، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى ، واتبع طريق المرسلين ، وأعرض عن طريق الضالين ؛ فإن الله يهدي قلبه ، ويعلمه ما لم يكن يعلم ، ويجعله إماماً يقتدى به الخير ، وداعياً إلى سبيل الرشاد ﴿ ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ﴾ هذا التوحيد وهو الإقرار بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ﴿ من فضل الله علينا ﴾ أي أوحاه إلينا وأمرنا به . ﴿ وعلى الناس ﴾ إذ جعلنا دعاء لهم إلى ذلك ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ أي لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم ، بل ﴿ بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ﴾ . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا أبو معاوية ، حدثنا حجاج عن عطاء ، عن ابن عباس أنه كان يجعل الجدة أبا ويقول : والله لمن شاء لاعنته عند الحجر ، ما ذكر الله جداً ولا جدة ، قال الله تعالى يعني إخباراً عن يوسف ﴿ واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴾ .

يَصْحَبِي السِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٢٦﴾

مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ

أَمْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَلَيْنَاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَيْمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾

ثم إن يوسف عليه السلام أقبل على الفتيتين بالمخاطبة والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وخلع ما سواه من الأوثان التي يعبدونها قومياً ؛ فقال ﴿ أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾ أي الذي ذل كل شيء لجزاله وعظمته سلطانه ، ثم بين لهما أن التي يعبدونها ويسمونها آلهة إنما هو جعل منهم ، وتسمية من تلقاء أنفسهم ، تلقاها خلفهم عن سلفهم ، وليس لذلك مستند من عند الله ؛ ولهذا قال ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ أي حجة ولا برهان ، ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشية والملك كله لله ، وقد أمر عباده قاطبة أن لا يعبدوا إلا إياه ، ثم قال تعالى : ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ أي هذا الذي أَدْعُوكم إليه من توحيد الله وإخلاص العمل له ، هو الدين المستقيم الذي أمر الله به ، وأنزل به الحجة والبرهان الذي يحبه ويرضاه ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أي فلهذا كان أكثرهم مشركين ، ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ . وقد قال ابن جريج : إنما عدل بهم يوسف عن تعبير الرؤيا إلى هذا ، لأنه عرف أنها ضارة لأحدهما ، فأحب أن يشغلها بغير ذلك لئلا يعاودوه فيها . فعادوه فأعاد عليهم المعظمة ؛ وفي هذا الذي قاله نظر ، لأنه قد عددهما أولاً بتعبيرها ، ولكن جعل سؤالهما له على وجه التعظيم والاحترام وصلته وسبباً إلى دعائهما إلى التوحيد والاسلام ، لما رأى في سجيتهما من قبول الخير واءلاقبال عليه والإنصات إليه ، ولهذا لما فرغ من دعوتها شرع في تعبير رؤيائهما من غير تكرار سؤال فقال :

يَصْحَبِي السِّجْنِ أَمْ أَحَدُكُمْ فَيسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمْ الْآخِرُ فَيَصْلِبُ فَتَأْكُلُ الظُّبُرُ مِنْ رَأْسِهِ فُصِيَ الْأَمْرُ

الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٢٨﴾

يقول لهما ﴿ يا صاحبي السجن أَمْ أَحَدُكُمْ فَيسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ وهو الذي رأى أنه يعصر خمرًا ، ولكنه لم يعينه لئلا يحزن

ذاك ، ولهذا أجهه في قوله ﴿وَأَمَّا الْآخِرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ وهو في نفس الأمر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً ، ثم أعلمهما أن هذا قد فرغ منه ، وهو واقع لا محالة ، لأن الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت ، وقال الثوري : عن عمارة بن القعقاع ، عن إبراهيم بن عبد الله قال : لما قالوا ما قالوا وأخبرهما ، قال : ما رأينا شيئاً ؛ فقال ﴿قَضَى الْأَمْرَ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ ورواه محمد بن فضيل عن عمارة ، عن إبراهيم ، عن علقمة . عن ابن مسعود ؛ وكذا فسره مجاهد وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم ؛ وحاصله أن من تحلم بباطل ، وفسره فإنه يلزم بتأويله ، والله تعالى أعلم . وقد ورد في الحديث الشريف الذي رواه الإمام أحمد عن معاوية بن حيدة ، عن النبي ﷺ قال «الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر ، فإذا عبرت وقعت» وفي مسند أبي يعلى من طريق يزيد الرقاشي ، عن أنس مرفوعاً «الرؤيا لأول عابرين» .

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ أَن يَذَّكَّرَ بِهِ فَأَبَىٰ وَفَجَّحَ فِي السِّجْنِ بِضَعِّ سِنَّينَ ﴿٤٢﴾

ولما ظن يوسف عليه السلام أن الساتي ناج ، قال له يوسف خفية عن الآخر ، والله أعلم - لثلا يشعره أنه المصلوب - قال له ﴿اذكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يقول : اذكر قصتي عند ربك ، وهو الملك ، فنسي ذلك الموصى أن يذكر مولاه الملك بذلك ، وكان من جملة مكاييد الشيطان لثلا يطلع نبي الله من السجن ، هذا هو الصواب أن الضمير في قوله ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ عائذ على الناجي ؛ كما قاله مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد . ويقال : إن الضمير عائذ على يوسف عليه السلام رواه ابن جرير عن ابن عباس ومجاهد أيضاً وعكرمة وغيرهم ، واسند ابن جرير ههنا حديثاً فقال : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا عمرو بن محمد عن إبراهيم بن يزيد ، عن عمرو بن دينار ، عن عكرمة ، عن ابن عباس مرفوعاً ، قال : قال النبي ﷺ «ولو لم يقل - يعني يوسف - الكلمة التي قال ، ما لبث في السجن طول ما لبث حيث يتعني الفرج من عند غير الله» ، وهذا الحديث ضعيف جداً ، لأن سفيان بن وكيع ضعيف ، وإبراهيم بن يزيد هو الجوزي أضعف منه أيضاً . وقد روي عن الحسن وقتادة مرسلًا عن كل منهما ؛ وهذه المرسلات ههنا لا تقبل من قبل المرسل من حيث هو في غير هذا الوطن ، والله أعلم .
وأما البضع فقال مجاهد وقتادة : هو ما بين الثلاث إلى التسع . وقال وهب بن منبه : مكث أيوب في البلاء سبعاً ، ويوسف في السجن سبعاً ، وعذب بختنصر سبعاً ، وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنها ﴿فلبث في السجن بضع سنين﴾ قال : ثلثا عشرة سنة . وقال الضحاك : أربعة عشرة سنة .

وَقَالَ السِّبْكَ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ
يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونًا فِي رُبِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا تَعَبَّرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضَعَفْتُ أَحْلَامِي وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾
وَقَالَ الَّذِي نَجَّا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ . فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ
سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلَّ نَارِجِعَ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ
تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُّوهُ فِي سُنبُلِهِ ۖ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا نَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادًا يَأْكُلْنَ
مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا حَصَصْتُمْ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُعَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْبُرُونَ ﴿٤٩﴾

هذه الرؤيا من ملك مصر مما قدر الله تعالى أنها كانت سبباً لخروج يوسف عليه السلام من السجن ، معزوزاً مكرماً ، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا ، فهالته وتعجب من أمرها وما يكون تفسيرها ، فجمع الكهنة والحادة وكبار دولته وأمرهم فقص عليهم ما رأى وسألهم عن تأويلها ، فلم يعرفوا ذلك ، واعتذروا إليه بأنها ﴿أضغاث أحلام﴾ أي أخلط أحلام اقتضته رؤياك هذه ﴿وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾ أي لو كانت رؤيا صحيحة من أخلط لما كان لنا معرفة بتأويلها ،

وهو تعبيرها ، فعند ذلك تذكر الذي نجا من ذنك الفتيين اللذين كانا في السجن مع يوسف ، وكان الشيطان قد أنساه ما وصاه به يوسف من ذكر أمره للملك ، فعند ذلك تذكر بعد أمة ، أي مدة ، وقرأ بعضهم بعد أمه أي بعد نسيان ، فقال لهم ، أي للملك والذين جمعهم لذلك ﴿أنا أنبئكم بتأويله﴾ أي بتأويل هذا المنام ، ﴿فأرسلون﴾ أي فابعثون إلى يوسف الصديق إلى السجن ، ومعنى الكلام فبعثوه فجاء ، فقال ﴿يوسف أيها الصديق أفنتا﴾ وذكر المنام الذي رآه الملك ، فعند ذلك ذكر له يوسف عليه السلام تعبيرها من غير تعنيف للفتى في نسيانه ما وصاه به ، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك ، بل قال ﴿تزرعون سبع سنين دأباً﴾ أي يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات ففسر البقر بالسنين لأنها تثير الأرض التي تستغل منها الثمرات والزروع ، وهن السنبلات الخضراء ، ثم أرشدهم إلى ما يعتدونه في تلك السنين ، فقال ﴿فما حصدم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون﴾ أي مهما استغلتم في هذه السبع السنين الخصب . فادخروه في سنبله ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه وإلا المقدار الذي تأكلونه ، ولكن قليلاً قليلاً ، لا تسرفوا فيه لتنتفعوا في السبع الشداد ، وهن السبع السنين المحل التي تعقب هذه السبع المتواليات ، وهن البقرات العجاف اللاتي تأكل السنان ، لأن سني الجذب يؤكل فيها ما جمعه في سني الخصب ، وهن السنبلات اليابسات ، وأخبرهم أنهم لا ينبتن شيئاً ، وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شيء ، ولهذا قال ﴿يأكلن ما قدمت لهن إلا قليلاً مما تحصنون﴾ ثم بشرهم بعد الجذب العام المتوالي بأنه يعقبهم بعد ذلك عام فيه يغاث الناس ، أي يأتيهم الغيث وهو المطر وتغل البلاد ، ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم من زيت ونحوه ، وسكر ونحوه ، حتى قال بعضهم : يدخل فيه حلب اللبن أيضاً . قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿فيه يعصرون﴾ يجلبون .

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُونِي بِهِ فَلَمَّ جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْتَلِمَهُ مَا بَالَ

النِّسْوَةَ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ

مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ لَنْ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ

لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنُهِ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ

رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾

يقول تعالى إخباراً عن الملك لما رجعوا إليه بتعبير رؤياه التي كان رآها بما أعجبه وأيقنه ، فعرف فضل يوسف عليه السلام ، وعلمه وحسن اطلاعه على رؤياه ، وحسن أخلاقه على من ببلده من رعاياه ؛ فقال ﴿أتونني به﴾ أي أخرجوه من السجن وأحضروه ؛ فلما جاءه الرمولى بذلك امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته ونزاهة عرضه مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز ، وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه ، بل كان ظلماً وعدواناً ، فقال ﴿ارجع إلى ربك﴾ الآية . وقد وردت السنة بمدحه على ذلك والتنبيه على فضله وشرفه وعلو قدره وصبره ، صلوات الله وسلامه عليه . ففي المسند والصحاحين من حديث الزهري عن سعيد وأبي سلمة ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال ﴿رب أرني كيف تحمي الموتى﴾ الآية ؛ ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد ، ولولبت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي» ، وفي لفظ لأحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ في قوله ﴿فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم﴾ فقال رسول الله ﷺ «لو كنت أنا ، لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر» .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا ابن عيينة عن عمرو بن دينار ، عن عكرمة قال : قال رسول الله ﷺ «لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ، ولو كنت مكانه ما أجبتهن حتى أشرت أن يخرجوني ، ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه ، والله يغفر له حين أتاه الرسول ، ولو كنت مكانه لبادرتهن الباب ، ولكنه أراد أن يكون له العذر» ؛ وهذا حديث مرسل . وقوله تعالى ﴿قال ما خطبكن إذ راولتن يوسف عن نفسه﴾ إخبار عن الملك حين جمع النسوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز ؛ فقال مخاطباً لهن كلهن وهو يريد امرأة وزيره ، وهو العزيز ، قال الملك للنسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴿ما خطبكن﴾ أي شائكن وخبركن ﴿إذ راولتن يوسف عن نفسه﴾ يعني

يوم الضيافة ، ﴿قلن حاش الله ما علمنا عليه من سوء﴾ أي قالت النسوة جواباً للملك : حاش الله أن يكون يوسف متهماً ، والله ما علمنا عليه من سوء ، فعند ذلك ﴿قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : تقول الآن تبين الحق وظهر وبرز ، ﴿أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين﴾ أي في قوله ﴿هي راودتني عن نفسي﴾ ﴿ذلك ليعلم أنني لم أخنه بالغيب﴾ تقول : إنما اعترفت بهذا على نفسي ليعلم زوجي أنني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر ، ولا وقع المحذور الأكبر ، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع ، فلماذا اعترفت ليعلم أنني بريئة ﴿وأن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ وما أبرئ نفسي ﴿تقول المرأة : ولست أبرئ نفسي ، فإن النفس تتحدث وتتمنى ، ولهذا راودته لأن ﴿النفس لأماراة بالسوء إلا ما رحم ربي﴾ أي إلا من عصمه الله تعالى : ، ﴿إن ربي غفور رحيم﴾ وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام .

وقد حكاها الماوردي في تفسيره ، وانتدب الإمام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله ، فأفرده بتصنيف على حدة ، وقد قيل : إن ذلك من كلام يوسف عليه السلام يقول ﴿ذلك ليعلم أنني لم أخنه﴾ في زوجته ﴿بالغيب﴾ لايتين ، أي إنما رددت الرسول ليعلم الملك براءتي ، وليعلم العزيز ﴿أنني لم أخنه﴾ في زوجته ﴿بالغيب وإن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ الآية ، وهذا القول هو الذي لم يحك ابن جرير ولا ابن أبي حاتم سواء . وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا وكيع عن إسرائيل ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما جمع الملك النسوة فسألن : هل راودتن يوسف عن نفسه ؟ ﴿قلن حاش الله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق﴾ الآية ؛ قال يوسف ﴿ذلك ليعلم أنني لم أخنه بالغيب﴾ فقال له جبريل عليه السلام : ولا يوم هممت بما هممت به ؟ فقال ﴿وما أبرئ نفسي﴾ الآية ، وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبيرة وعكرمة وابن أبي الهذيل والضحاك والحسن وقتادة والسدي ، والقول الأول أقوى وأظهر ، لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك ، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم ، بل بعد ذلك أحضره الملك .

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِيهِ بِهَذَا اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِهِ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ

إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾

يقول تعالى إخباراً عن الملك حين تحقق براءة يوسف عليه السلام ونزاهة عرضه عما نسب إليه ، قال ﴿أتؤتي به استخلصه لنفسه﴾ أي أجعله من خاصتي وأهل مشورتني ﴿فلما كلمه﴾ أي خاطبه الملك ، وعرفه ، ورأى فضله وبراعته ، وعلم ما هو عليه من خلق وخلق وكمال ، قال له الملك ﴿إنك اليوم لدينا مكين أمين﴾ أي إنك عندنا قد بقيت ذا مكانة وأمانة ، فقال يوسف عليه السلام ﴿اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾ مدح نفسه ، ويجوز للرجل ذلك إذا جهل أمره للحاجة ، وذكر أنه ﴿حفيظ﴾ أي خازن أمين ، ﴿عليم﴾ ذو علم وبصيرة بما يتولاه . وقال شيبه بن نعام : حفيظ لما استودعتني ، عليم بسني الجذب ، رواه ابن أبي حاتم ؛ وسأل العمل لعلمه بقدرته عليه ولما فيه من المصالح للناس ، وإنما سأله أن يجعله على خزائن الأرض ، وهي الأهرام التي يجمع فيها الغلات ، لما يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها ، فيتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد ، فأجيب إلى ذلك رغبة فيه وتكرمة له ولهذا قال تعالى :

وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ أَهْلَ مَكَّنَّا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نَصِيبٌ بِرَحْمَتِنَا مِنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

يقول تعالى : ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض﴾ أي أرض مصر ، ﴿يتبوا منها حيث يشاء﴾ قال السدي وعبد الرحمن بن زي بن أسلم : يتصرف فيها كيف يشاء . وقال ابن جرير : يتخذ منها منزلاً حيث يشاء بعد الضيق والحسب والإسار ، ﴿نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين﴾ أي وما أضعنا مبر يوسف على أذى إخوته وصره على الحسب بسبب امرأة العزيز ، فلماذا أعقبه الله عز وجل السلام والنصر والتأييد ، ﴿ولا نضيع أجر المحسنين﴾ ولأجر

الأخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴿١٠﴾ يخبر تعالى أن ما ادخره الله تعالى لنبية يوسف عليه السلام في الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا ، كقوله في حق سليمان عليه السلام ﴿هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب ﴾ * وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴿١١﴾ والغرض أن يوسف عليه السلام وولاه ملك مصر الريان بن الوليد الوزارة في بلاد مصر مكان الذي اشتراه من مصر زوج التي راودته ، وأسلم الملك على يدي يوسف عليه السلام ؛ قاله مجاهد . وقال محمد بن إسحاق : لما قال يوسف للملك ﴿اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾ قال الملك : قد فعلت ، فولاه فيها ذكروا عمل اطفير ، وعزل اطفير عما كان عليه ؛ يقول الله عز وجل ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين﴾ قال : فذكر لي - والله أعلم - أن اطفير هلك في تلك الليالي ، وأن الملك الريان بن الوليد زوج يوسف امرأة اطفير راعيل ، وأنها حين دخلت عليه قال لها : اليس هذا خيراً مما كنت تريدين ؟ قال : فيزعمون أنها قالت : أيها الصديق لا تلمني ، فاني كنت امرأة كما ترى حسناء جميلة ناعمة في ملك ودنيا ، وكان صاحبي لا يأتي النساء ، وكنت كما جعلك الله في حسنك وهيبتك على ما رأيت ، فيزعمون أنه وجدها عذراء ، فأصابها ، فولدت له رجلين : افراييم بن يوسف ، وميشا بن يوسف ، وولد لافراييم نون والد يوشع بن نون ، ورحمة امرأة أيوب عليه السلام ، وقال الفضيل بن عياض : وقفت امرأة العزيز على ظهر الطريق حتى مر يوسف ، فقالت : الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكاً بطاعته ، والملوك عبيداً بمعصيته .

وَجَاءَ إِخْوَةَ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمَّا

جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَجْرٍ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ الْآتِرُونَ أَمْ فِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿١٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا

كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ ﴿١٤﴾ قَالُوا سَرَّوْدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿١٥﴾ وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ أَجْعَلُوا لِيضَعَنَّهُمْ فِي رِحَالِهِمْ

لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦﴾

ذكر السدي ومحمد بن إسحاق وغيرهما من المفسرين أن السبب الذي أقدم إخوة يوسف بلاد مصر ، أن يوسف عليه السلام لما باشر الوزارة بمصر ومضت السبع السنين المخصبة ، ثم تلتها السبع السنين المجذبة ، وعم القحط بلاد مصر بكماها ، ووصل إلى بلاد كنعان وهي التي فيها يعقوب عليه السلام وأولاده ، وحينئذ احتاط يوسف عليه السلام للناس في غلاتهم ، وجمعها أحسن جمع ، فحصل من ذلك مبلغ عظيم وهدايا متعددة هائلة ، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعامل ، يمتارون لأنفسهم وبعيائهم ، فكان لا يعطي الرجل أكثر من حمل بعير في السنة ، وكان عليه السلام ، لا يشبع نفسه ، ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا أكلة واحدة في وسط النهار ، حتى يتكفأ الناس بما في أيديهم مدة السبع سنين ، وكان رحمة من الله على أهل مصر .

وما ذكره بعض المفسرين من أنه باعهم في السنة الأولى بالأموال ، وفي الثانية بالمتاع ، وفي الثالثة بكذا ؛ وفي الرابعة بكذا ، حتى باعهم بأنفسهم وأولادهم بعد ما تملك عليهم جميع ما يملكون ، ثم اعتقهم ورد عليهم أموالهم كلها ، الله أعلم بصحة ذلك ، وهو من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب ، والغرض أنه كان في جملة من ورد للميرة إخوة يوسف عن أمر أبيهم لهم في ذلك ، فإنه بلغهم أن عزيز مصر يعطي الناس الطعام بثمنه ، فأخذوا معهم بضاعة يعترضون بها طعاماً ، وركبوا عشرة نفر ، واحتبس يعقوب عليه السلام عنده ابنه بنيامين شقيق يوسف عليه السلام ، وكان أحب ولده إليه بعد يوسف ، فلما دخلوا على يوسف وهو جالس في أبيته ورياسته وسيادته ، عرفهم حين نظر إليهم ، وهم له منكرون أي لا يعرفونه ، لأنهم فارقه وهو صغير حدث ، وبعاهو للسيارة ولم يدروا أين يذهبون به ، ولا كانوا يستشعرون في أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه ؛ فلماذا لم يعرفوه ، وأما هو فعرفهم . فذكر السدي وغيره أنه شرع يخاطبهم ، فقال لهم كالمنكر عليهم : ما أقدمكم بلادي ؟ فقالوا : أيها العزيز إنا قدما للميرة ، قال : فلعلكم عيون ؟ قالوا معاذ الله . قال فمن أين أنتم ؟ قالوا من بلاد كنعان ، وأبونا يعقوب نبي الله . قال : وله أولاد غيركم ؟ قالوا : نعم كنا اثني عشر ، فذهب أصغرنا ، هلك في البرية وكان أحبنا إلى أبيه ، وبقي شقيقه فاحتبسه أبوه ليشلى به عنه ، فأمر بإنزالهم وإكرامهم ﴿ولما جهزهم بجهازهم﴾ أي أوفى لهم كيلهم ، وحمل لهم أحاملهم ، قال : اتوني بأخيكم هذا الذي ذكرت لأعلم صدقكم فيما ذكرتكم ﴿ألا ترون أنني أوفى الكيل وأنا خير المنزلين ؟﴾ يرغبهم في الرجوع إليه ، ثم رهبهم فقال ﴿فإن لم

تأتوني به فلا كيل لكم عندي ﴿ الآية ، أي إن لم تقدموا به معكم في المرة الثانية فليس لكم عندي ميرة ، ﴿ ولا تقرّبون ﴾ قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون ﴿ أي سنحرص على عبثه إليك بكل ممكن ، ولا نبقي مجهوداً لتعلم صدقنا فيما قلناه ، وذكر السدي أنه أخذ منهم رهائن حتى يقدموا به معهم ، وفي هذا نظر ! لأنه أحسن اليهم ورغبهم كثيراً ، وهذا لحرصه على رجوعهم ؛ ﴿ وقال لفتياناه ﴿ أي غلماناه ﴿ اجعلوا بضاعتهم ﴾ أي التي قدموا بها ليتمارتوا عوضاً عنها ﴿ في رحالهم ﴾ أي في أمتعتهم من حيث لا يشعرون ، ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ بها ، قيل : خشى يوسف عليه السلام أن لا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها . وقيل : أراد أن يردهم إذا وجدوها في متاعهم تحرجاً وتورعاً ، لأنه يعلم ذلك والله أعلم .

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَنَعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٦﴾

قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا آمَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٧﴾

يقول الله تعالى عنهم : إنهم رجعوا إلى أبيهم ﴿ قالوا يا أبانا منع منا الكيل ﴾ يعنون بعد هذه المرة ، إن لم ترسل معنا آخانا بنيامين لا نكتل ، فأرسله معنا نكتل ، وإنا له لحافظون ، قرأ بعضهم بالياء أي يكتل هو ، ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ أي لا نتخف عليه فإنه سيرجع إليك ، وهذا كما قالوا له في يوسف ﴿ أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ﴾ ولهذا قال لهم ﴿ هل آمنكم عليه إلا كما آمنكم على أخيه من قبل ﴾ أي هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل ، تغييره عني ، وتقولون بيني وبينه ؟ ﴿ فإله خير حافظاً ﴾ وقرأ بعضهم حفظاً ﴿ وهو أرحم الراحمين ﴾ أي هو أرحم الراحمين بي ، وسيرحم كبري وضعفي ووجدي بولدي ، وأرجو من الله أن يرده علي ويجمع شملي به ، إنه أرحم الراحمين .

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ

أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَنَزِدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٌ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿١٨﴾ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنِّي

اللَّهِ لَأَنْتَنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يَحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿١٩﴾

يقول تعالى : ولما فتح إخوة يوسف متاعهم ، وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ، وهي التي كان أمر يوسف فتيانها بوضعها في رحالهم ، فلما وجدوها في متاعهم ﴿ قالوا يا أبانا ما نبغي ﴾ أي ماذا نريد ﴿ هذه بضاعتنا ردت إلينا ﴾ ، كما قال قتادة : ما نبغي وراء هذا ، إن بضاعتنا ردت إلينا ، وقد أوفى لنا الكيل ، ﴿ ونمير أهلنا ﴾ أي إذا أرسلت آخانا معنا نأتي بالميرة إلى أهلنا ، ﴿ ونحفظ آخانا ونزداد كيل بعير ﴾ وذلك أن يوسف عليه السلام كان يعطي كل رجل حمل بعير ، وقال مجاهد : حمل حمار ، وقد يسمى في بعض اللغات بعيراً ، كذا قال ﴿ ذلك كيل يسير ﴾ هذا من تمام الكلام وتحسينه ، أي إن هذا يسير في مقابلة أخذ أخيهما ما يعدل هذا ﴿ قال لن أرسله معكم حتى تؤتوني موثقاً من الله ﴾ أي تحلفون بالعهد والمواثيق ﴿ لئانتني به إلا أن يحاط بكم ﴾ إلا أن تغلبوا كلكم ولا تقدرتون على تخليصه ﴿ فلما آتوه موثقهم ﴾ أكد عليهم ؛ فقال ﴿ الله على ما نقول وكيل ﴾ ، قال ابن إسحاق : وإنما فعل ذلك لأنه لم يجد بداً من بعثهم لأجل الميرة التي لا غنى لهم عنها ، فبعثه معهم .

وَقَالَ يَبْنَئِي لَأَتَدْخُلُونَّ أَبَابَ وَجِدِ وَأَدْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَعْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ

اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ بَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لَمَّا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

يقول تعالى إخباراً عن يعقوب عليه السلام ، أنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيه بنيامين إلى مصر أن لا يدخلوا كلهم من باب واحد ، وليدخلوا من أبواب متفرقة ، فإنه كما قال ابن عباس ومحمد بن كعب ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغير واحد إنه : خشي عليهم العين ، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة ، ومنظر وبهاء ، فخشي عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم ، فإن العين حق تستنزل الفارس عن فرسه . وروى ابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي في قوله ﴿وادخلوا من أبواب متفرقة﴾ قال : علم أنه سيلقى إخوته في بعض تلك الأبواب . قوله ﴿وما أغني عنكم من الله من شيء﴾ أي إن هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه ؛ فإن الله إذا أراد شيئاً لا يخالف ولا يمانع ، ﴿إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون﴾ * ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوه ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها﴾ قالوا : هي دفع إصابة العين لهم ﴿وإنه لذو علم لما علمناه﴾ قال قتادة والثوري : لذو علم بعلمه . وقال ابن جرير : لذو علم لتعليمنا إياه ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ .

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوْسَتْ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧٦﴾

يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه شقيقه بنيامين ، وأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته ، وأفاض عليهم الصلة والالطاف والإحسان ، واختل بأخيه فأطلع على شأنه وما جرى له ، وعرفه أنه أخوه ، وقال له : لا تبئس ، أي لا تأسف على ما صنعوا بي ، وأمره بكتمان ذلك عنهم ، وأن لا يطلعهم على ما أطلعهم عليه من أنه أخوه ، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معزراً مكرماً معظماً .

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أُخِيهِ ثُمَّ أَدْنَىٰ أَيْتَهَا الْعَيْرَ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا وَقَبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧٨﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلَمَن جَاءَ بِهِ حَمْلٌ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٩﴾

لما جهزهم وحمل لهم أبعرتهم طعاماً ، أمر بعض فتيانه أن يضع السقاية ، وهي إناء من فضة في قول الأكثرين ، وقيل : من ذهب ؛ قاله ابن زيد ، كان يشرب فيه ، ويكيل للناس به من عزة الطعام إذ ذاك ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد ، وقال شعبة عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : صواع الملك ، قال : كان من فضة يشربون فيه ، وكان مثل المكوك ، وكان للعباس مثله في الجاهلية ، فوضعها في متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد ، ثم نادى بناد بينهم ﴿أيتها العير إنكم لسارقون﴾ فالتفتوا إلى المنادي وقالوا ﴿ماذا تفقدون﴾ * قالوا نفقد صواع الملك﴾ أي صاعه الذي يكيل به ﴿ولمن جاء به حمل بعير﴾ وهذا من باب الجعالة ، ﴿وأنا به زعيم﴾ وهذا من باب الضمان والكفالة .

قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَاجِئَنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ

﴿٧٧﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٨﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مِنْ وُجْدٍ فِي رِحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ

﴿٧٩﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أُخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْهَا مِنْ وَعَاءِ أُخِيهِ كَذَلِكَ كَذْنَا لِيُؤْسَفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ

فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٨٠﴾

لما اتهمهم أولئك الفتيان بالسرقه ، قال لهم إخوة يوسف ﴿تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين﴾ أي لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا ، لأنهم شاهدوا منهم سيرة حسنة أنا ﴿ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين﴾ أي ليست سجاياتنا تقتضي هذه الصفة ؛ فقال لهم الفتيان ﴿فما جزاؤه﴾ أي السارق إن كان فيكم ﴿إن كنتم كاذبين﴾ أي : أي شيء يكون عقوبته إن وجدنا فيكم من أخذه ؟ ﴿قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك

نجزي الظالمين ﴿ وهكذا كانت شريعة إبراهيم عليه السلام ، أن السارق يدفع إلى المسروق منه ، وهذا هو الذي أراد يوسف عليه السلام ، ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ، أي فتشها قبله تورية ، ﴿ ثم استخرجها من وعاء أخيه ﴾ فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم ، وإلزاماً لهم بما يعتقدونه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يمجح الله ويرضاه ، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة .

وقوله ﴿ ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ﴾ أي لم يكن له أخذه في حكم ملك مصر قاله الضحاك وغيره ، وإنما قبض الله له أن التزم له إخوته بما التزموه ، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم ، ولهذا مدحه الله تعالى فقال ﴿ نرفع درجات من نشاء ﴾ كما قال تعالى : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم ﴾ الآية ؛ ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ قال الحسن البصري : ليس عالم إلا فوفقه عالم حتى ينتهي إلى الله عز وجل ، وكذا روى عبد الرزاق عن سفيان الثوري ، عن عبد الأعلى الثعلبي ، عن سعيد بن جبير ، قال : كنا عند ابن عباس فحدث بحديث عجيب ، فتعجب رجل فقال : الحمد لله فوق كل ذي علم عليم ، فقال ابن عباس : بش ما قلت ، الله العليم فوق كل عالم ؛ وكذا روى سماك عن عكرمة ، عن ابن عباس ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ قال : يكون هذا أعلم من هذا ، وهذا أعلم من هذا ، والله فوق كل عالم ؛ وهكذا قال عكرمة ، وقال قتادة : وفوق كل ذي علم عليم ، حتى ينتهي العلم إلى الله ، منه بديء ، وتعلمت العلماء ، وإليه يعود . وفي قراءة عبد الله : وفوق كل عالم عليم .

﴿ قَالَ إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لِي مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ . وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ

مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾

وقال إخوة يوسف لما رأوا الصواع قد أخرج من متاع بنيامين ﴿ إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾ يتصلون إلى العزيز من التشبه به ، ويذكرون أن هذا فعل كما فعل أخ له من قبل ، يعنون به يوسف عليه السلام . قال سعيد بن جبير ، عن قتادة : كان يوسف عليه السلام قد سرق صنفاً لجدته أبي أمه فكسره ، وقال محمد بن إسحاق ، عن عبد الله بن أبي نجيع ، عن مجاهد ، قال : كان أول ما دخل على يوسف من البلاء فيما بلغني أن عمته ابنة إسحاق ، وكانت أكبر ولد إسحاق ، وكانت عندها منطقة إسحاق ، وكانوا يتوارثونها بالكبر ، وكان من اختبأها عن ولها كان له سلباً لا ينزاع فيه ، يصنع فيه ما يشاء ، وكان يعقوب حين ولد له يوسف قد حضنته عمته ، وكان لها به وله ، فلم تحب أحداً جهاً إياه حتى إذا ترعرع وبلغ سنوات ، تافت إليه نفس يعقوب عليه السلام ، فأتاها فقال : يا أخية سلمى ، إلي يوسف ، فوالله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة . قالت : فوالله ما أنا بتاركته ، ثم قالت : أو كما قالت : فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى منطقة إسحاق فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه ، ثم قالت : فدعه عندي أياماً أنظر إليه ، وأسكن عنه لعل ذلك يسلبني عنه ، أو كما قالت : فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى منطقة إسحاق فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه ، ثم قالت : فقدت منطقة إسحاق عليه السلام ، فانظروا من أخذها ومن أصابها؟ فالتمست ، ثم قالت : اكتشفوا أهل البيت فكشفوهم فوجدوها مع يوسف ؛ فقالت والله إنه لي لسلم ، أصنع فيه ما شئت ؛ فأتاها يعقوب ، فأخبرته الخبر ؛ فقال لها : أنت وذاك ؛ إن كان فعل ذلك فهو سلم لك ، ما أستطيع غير ذلك ؛ فأمسكته فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت ، قال : فهو الذي يقول إخوة يوسف حين صنع بأخيه ما صنع حين أخذه ﴿ إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾ . وقوله ﴿ فأسرها يوسف في نفسه ﴾ يعني الكلمة التي بعدها ، وهي قوله ﴿ أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون ﴾ أي تذكرون ؛ قال هذا في نفسه ولم يبدئه لهم ، وهذا من باب الإضمار قبل الذكر ، وهو كثير ، كقول الشاعر :

جزى بنوه أبسا الغيلان عن كبر وحسن فعل كما يجزى سنهار

وله شواهد كثيرة في القرآن والحديث واللغة في مثورها وأخبارها وأشعارها . قال العوفي عن ابن عباس ﴿ فأسرها يوسف في نفسه ﴾ ، قال : أمر في نفسه ﴿ أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون ﴾ .

قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَاشِيخًا كَثِيرًا فَخُذْ أَحَدًا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ

أَن نَّأخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَّعَيْنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَطَمُوا ﴿٧٩﴾

لما تعين أخذ بنيامين وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم ، شرعوا يترققون له ويعطفونه عليهم ﴿فقالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخاً كبيراً﴾ يعنون وهو يحبه حباً شديداً ويتسلى به عن ولده الذي فقده ﴿فخذ أحدنا مكانه﴾ أي بدله يكون عندك عوضاً عنه ، ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ أي العادلين المنصفين القابلين للخير ، ﴿قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده﴾ أي كما قلتم واعترفتم ﴿إنا إذا لظالمون﴾ أي إن أخذنا بريئاً بسقيم .

فَلَمَّا اسْتَيْسُرُوا مِنْهُ خَاصُّوا بِحَيْثُ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاءَكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ

مَوَافِقًا مِنْ اللَّهِ وَمَنْ قَتَلَ مَا فَارَقْتَهُ فِي يُوسُفَ فَلَنَ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ

﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَائِنَا إِنَّكَ سَرَقْتَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ

﴿٨١﴾ وَسَأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِمْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾

يخبر تعالى عن إخوة يوسف أنهم لما يشوا من تخليص أخيهم بنيامين الذي قد التزموا لآبائهم برده إليه ، وعاهدوه على ذلك ، فامتنع عليهم ذلك ﴿خلصوا﴾ أي انفردوا عن الناس ﴿نجياً﴾ يتناجون فيما بينهم ﴿قال كبيرهم﴾ وهو روبيل ، وقيل : يهوذا ، وهو الذي أشار عليهم بإلقائه في البئر عند ما هموا بقتله ، قال لهم ﴿لم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله﴾ لئلا يتردنه إليه فقد رأيتكم كيف تعذر عليكم ذلك مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه ﴿فلن أبرح الأرض﴾ أي لن أفارق هذه البلدة ﴿حتى يأذن لي أبي﴾ في الرجوع إليه راضياً عني ﴿أو يحكم الله لي﴾ قيل : بالسيف ، وقيل : بأن يمكيني من أخذ أخي ﴿وهو خير الحاكمين﴾ ، ثم أمرهم أن يخبروا آباهم بصورة ما وقع ، حتى يكون عذراً لهم عنده ، ويتصلوا إليه ويبرؤا عما وقع بقولهم . وقوله ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾ قال قتادة وعكرمة : ما علمنا أن ابنك سرق . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ما علمنا في الغيب أنه سرق له شيئاً ، إنما سألنا ما جزاء السارق ؟ ﴿واسأل القرية التي كنا فيها﴾ قيل : المراد مصر ، قال قتادة ، وقيل غيرها ، ﴿والعمر التي أقبلنا فيها﴾ أي التي رافقناها ، عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا ، ﴿وإنا لصادقون﴾ فيما أخبرناك به ، من أمرنا وأخذوه بسرقة .

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ

الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا سَقِطَى عَلَى يُونُسَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَاطِمٌ ﴿٨٤﴾

قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُنَا تَذَكَّرُ يُونُسَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بِنُسْبِهِ

وَحُزِنَ إِلَى اللَّهِ وَعَلِمَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

قال لهم كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل﴾ قال محمد بن إسحاق : لما جاءوا يعقوب وأخبروه بما جرى ، اتهمهم فظن أنها كفعلتهم بيوسف ، قال ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل﴾ وقال بعض الناس : لما كان صنيعهم هذا مرتباً على فعلهم الأول ، سحب حكم الأول عليه ، وصح قوله ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل﴾ ثم ترجى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة : يوسف وأخاه بنيامين وروبييل الذي أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه ، إما أن يرضى عنه أبوه ، فيأمره بالرجوع إليه ، وإما أن يأخذه أخاه خفية ، ولهذا قال ﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم﴾ أي العليم بحالي ، ﴿الحكيم﴾ في أفعاله وقضائه وقدره ، ﴿وتولى عنهم﴾ وقال يا أسفا على يوسف ﴿أي أعرض عن بنيه ، وقال متذكراً حزن يوسف القديم الأول ﴿يا أسفا على يوسف﴾ جدده له حزن الابنين الحزن الدفين ، قال عبد الرزاق : عن الثوري عن سفيان العصفري ، عن سعيد بن جبير أنه قال : لم يعط أحد غير هذه الأمة الاسترجاع ، ألا تسمعون إلى قول يعقوب عليه السلام ﴿يا أسفا على يوسف وابيضت عيناه من

الحزن فهو كظيم ﴿ أي ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق ، قاله قتادة وغيره . وقال الضحاك : فهو كظيم كتيب حزين . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي . حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن الحسن ، عن الأحنف بن قيس أن النبي ﷺ قال «إن داود عليه السلام قال : يا رب إن بني إسرائيل يسألونك إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، فاجعلني لهم رابعاً ، فأوحى الله تعالى إليه : أن يا داود إن إبراهيم ألقى في النار بسببي فصبر ، وتلك بلية لم تنلك ، وإن إسحاق بذل مهجة دمه بسببي فصبر ، وتلك بلية لم تنلك ، وإن يعقوب أخذت منه حبيبه فابيضت عيناه من الحزن فصبر ، وتلك بلية لم تنلك وهذا مرسل وفيه نكارة ، فإن الصحيح أن إسماعيل هو الذبيح ، ولكن علي بن زيد بن جدعان له ، مناكير وغرائب كثيرة ، والله أعلم . وأقرب ما في هذا أن الأحنف بن قيس رحمه الله حكاه عن بعض بني إسرائيل ككعب وهوب ونحوهما ، والله أعلم ، فإن بني إسرائيل ينقلون أن يعقوب كتب إلى يوسف لما احتسب أخاه بسبب السرقة يتلطف له في رد ابنه ، ويذكر له أنهم أهل بيت مصابون بالبلاء ، فإبراهيم ابتلي بالنار ، وإسحاق بالذبح ، ويعقوب بفراق يوسف ، في حديث طويل لا يصح ، والله أعلم ؛ فعند ذلك رق له بنوه ، وقالوا له على سبيل الرق به والشفقة عليه ﴿تالله فتفتؤ تذكر يوسف﴾ أي لا تفارق تذكر يوسف ﴿حتى تكون حرصاً﴾ أي ضعيف القوة ﴿قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾ أي أجابهم عما قالوا بقوله ﴿إنما أشكو بثي وحزني﴾ أي هي وما أنا فيه ﴿إلى الله﴾ وحده ، ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ أي أرجو منه كل خير ، وعن ابن عباس ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ يعني رؤيا يوسف إنها صدق ، وأن الله لا بد أن يظهرها ؛ وقال العوفي عنه في الآية : أعلم أن رؤيا يوسف صادقة وأني سوف أسجد له .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا يحيى بن عبد الملك بن أبي بحنة عن حفص بن عمر بن أبي الزبير ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «كان ليعقوب النبي عليه السلام أخ مؤاخ له ، فقال له ذات يوم : ما الذي أذهب بصرك ؟ وقوس ظهرك ؟ قال : أما الذي أذهب بصري فالبكاء على يوسف ، وأما الذي قوس ظهري فالحزن على بنيامين ، فأثاه جبريل عليه السلام فقال : يا يعقوب إن الله يقرئك السلام ويقول لك : أما تستحي أن تشكوني إلى غيري ؟ فقال يعقوب : إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ، فقال جبريل عليه السلام : الله أعلم بما تشكوه وهذا حديث غريب فيه نكارة .

يَبْنِيْٓ اٰذْهَبُوْا فَتَحْسَبُوْا مِنْ يُّوسُفَ وَاٰخِيْهِ وَاَلَّا تَأْتِيْسُوْا مِنْ رُّوْحِ اللّٰهِ اِنَّهٗ لَا يَأْتِيْسُ مِنْ رُّوْحِ اللّٰهِ اِلَّا الْقَوْمَ الْكٰفِرُوْنَ
﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوْا عَلَيْهِ قَالُوْا يَا اَيُّهَا الْعَزِيْزُ مَسْنَا وَاَهْلُنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُّزَجَّجَةٍ فَاَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا

﴿٨٨﴾ اِنَّ اللّٰهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِيْنَ

يقول تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السلام : إنه ندب بنيه على الذهاب في الأرض يستعلمون أخبار يوسف وأخيه بنيامين ، والتحسس يكون في الخير ، والتجسس يكون في الشر ، ونهضهم وبشرهم وأمرهم أن لا يأسوا من روح الله أي لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه ، فإنه لا يقطع الرجاء ولا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون . وقوله ﴿فلما دخلوا عليه﴾ تقدير الكلام : فذهبوا فدخلوا مصر ، ودخلوا على يوسف ﴿قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر﴾ يعنون من الجذب والقحط وقلة الطعام ، ﴿وجئنا ببضاعة مزججة﴾ أي ومعنا ثمن الطعام الذي ننتاره ، وهو ثمن قليل ، قاله مجاهد والحسن وغير واحد . وقال ابن عباس : الرديء لا ينفق مثل خلق الغرارة والحبل والشيء ، وفي رواية عنه : الدراهم الرديئة التي لا تجوز إلا بنقصان ؛ وكذا قال قتادة والسدي . وقال سعيد بن جبير : هي الدراهم الفسول . وقال أبو صالح : هو الصنوبر وحبه الخضراء ، وقال الضحاك : كاسدة لا تنفق . وقال أبو صالح : جاءوا بحب البطم الأخضر والصنوبر ؛ وأصل الإجزاء الدفع لضعف الشيء ، كما قال حاتم طيء :

ليك على ملحان ضيف مدافع وأرملة تسزجي مع الليل أرملا

وقال أعشى بني ثعلبة :

الواهب المائة الهجان وبعدها عودا تسزجي خلفها أطفالها

وقوله إخباراً عنهم ﴿فأوف لنا الكيل﴾ أي أعطنا هذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك ، وقرأ ابن مسعود :

فأوتر ركابنا وتصدق علينا . وقال ابن جريج : وتصدق علينا برد أخينا إلينا . وقال سعيد بن جبير والسدي ﴿ وتصدق علينا ﴾ يقولون : تصدق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة ، وتجزؤ فيها . وسئل سفيان بن عيينة : هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء قبل النبي ﷺ ؟ فقال ألم تسمع قوله ﴿ فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين ؟ ﴾ رواه ابن جرير عن الحارث ، عن القاسم عنه . وقال ابن جرير : حدثنا الحارث ، حدثنا القاسم ، حدثنا مروان بن معاوية عن عثمان بن الأسود ، سمعت مجاهد وسئل : هل يكره أن يقول الرجل في دعائه : اللهم تصدق علي ؟ قال : نعم ، إنما الصدقة لمن يتغني الثوب

قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٨﴾ قَالُوا أَوَإِنَّكَ

لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُمْ مِنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ

الْمُحْسِنِينَ ﴿٩١﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرْنَاكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٩٢﴾ قَالَ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمْ

الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن يوسف عليه السلام ، أنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجلب ، وتذكر أباه وما هو فيه من الخزن لفقد ولديه مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة ، فعند ذلك أخذته رقة ورافة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته ، وبدره البكاء فتعرف إليهم ، فيقال : إنه رقع التاج عن جبهته ، وكان فيها شامة ؛ وقال ﴿ هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ﴾ يعني كيف فرقوا بينه وبين أخيه ﴿ إذ أنتم جاهلون ﴾ أي إنما حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذي ارتكبتموه ، كما قال بعض السلف : كل من عصي الله فهو جاهل ، وقرأ ﴿ ثم إن ربك للذنين عملوا سوءاً بجهالة ﴾ الآية ؛ والظاهر - والله أعلم - أن يوسف عليه السلام إنما تعرف إليهم بنفسه بإذن الله تعالى له في ذلك ، كما أنه أخفى منهم نفسه في المرتين الأولىين بأمر الله تعالى له في ذلك ، والله أعلم ولكن لما ضاق الحال واشتد الأمر ، فرج الله تعالى من ذلك الضيق ، كما قال تعالى : ﴿ فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً ﴾ فعند ذلك قالوا ﴿ أأنك أنت يوسف ؟ ﴾ وقرأ أبي ابن كعب ﴿ إنك أنت يوسف ﴾ ، وقرأ ابن محصن ﴿ أنت يوسف ﴾ ، والقراءة المشهورة هي الأولى ، لأن الاستفهام يدل على الاستعظام أي أنهم تعجبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من ستين وأكثر وهم لا يعرفونه وهو مع هذا يعرفهم ويكرم نفسه ؛ فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام ﴿ أأنك أنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي ﴾ .

وقوله ﴿ قد من الله علينا ﴾ أي بجمعه بيننا بعد التفرقة وبعد المدة ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا ﴿ الآية ؛ يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم في الخلق والخلق والسعة والملك والتصرف والنبوة أيضاً ، على قول من لم يجعلهم أنبياء ، وأقروا له بأنهم أساءوا إليه وأخطأوا في حقه ﴿ قال لا تتريب عليكم اليوم ﴾ يقول : أي لا تأنيب عليكم ولا عتب عليكم اليوم ، ولا أعيد عليكم ذنبكم في حقي بعد اليوم ، ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة فقال ﴿ يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ قال السدي : اعتذروا إلى يوسف فقال ﴿ لا تتريب عليكم اليوم ﴾ يقول : لا أذكر لكم ذنبكم : وقال ابن إسحاق والثوري ﴿ لا تتريب عليكم ﴾ أي لا تأنيب عليكم اليوم عندي فيما صنعتهم ، ﴿ يغفر الله لكم ﴾ أي يستر الله عليكم فيما فعلتم ﴿ وهو أرحم الراحمين ﴾ .

أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ

الْعِيرَ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾

يقول : اذهبوا بهذا القميص ﴿ فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً ﴾ وكان قد عمي من كثرة البكاء ، ﴿ وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾ أي بجمع بني يعقوب ، ﴿ ولما فصلت العير ﴾ أي خرجت من مصر ﴿ قال أبوهم ﴾ يعني يعقوب عليه السلام لمن بقي عنده من بنيه ﴿ إنني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ﴾ تنسبونني إلى الفند والكبر قال عبد الرزاق : أنبأنا إسرائيل عن أبي سنان ، عن عبد الله بن أبي الهذيل ، قال : سمعت ابن عباس يقول : ولما فصلت العير ، قال : لما خرجت العير

هاجت ريح ، فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف ؛ فقال ﴿إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون﴾ قال : فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام ، وكذا رواه سفيان الثوري وشعبة وغيرهما عن أبي سنان به وقال الحسن وابن جريج : كان بينهما ثمانون فرسخاً ، وكان بينه وبينه منذ افترقا ثمانون سنة .
وقوله ﴿لولا أن تفندون﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة وسعيد بن جبير تسفهون وقال مجاهد أيضاً والحسن : تمهمون . وقولهم ﴿إنك لفي ضلالك القديم﴾ قال ابن عباس : لفي خطئك القديم . وقال قتادة : أي من حب يوسف لا تنساه ولا تسلاه ، قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم ولا لنيي الله ﷺ ، وكذا قال السدي وغيره .

فَلَمَّا آتَتْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَنَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَأَرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا
يَتَابَانَا أَسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

قال ابن عباس والضحاك ﴿البشير﴾ البريد . وقال مجاهد والسدي : كان يهودا بن يعقوب ؛ قال السدي : إنما جاء به لأنه هو الذي جاء بالقميص وهو ملطخ بدم كذب ، فأحب أن يغسل ذلك بهذا ، فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه فرجع بصيراً ، وقال لبيبة عن ذلك ﴿لم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون﴾ أي أعلم أن الله سيرده إلي ، وقلت لكم ﴿إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون﴾ فعند ذلك قالوا لأبيهم مترفقين له ﴿يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين﴾ قال سوف استغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم ﴿أي من تاب إليه تاب عليه ، قال ابن مسعود وإبراهيم التيمي وعمرو بن قيس وابن جريج وغيرهم : أرجاهم إلى وقت السحر . وقال ابن جرير : حدثني أبو السائل ، حدثنا ابن دريس . سمعت عبد الرحمن بن إسحاق يذكر عن محارب بن دثار قال : كان عمر رضي الله عنه يأتي المسجد فيسمع انسانا يقول : اللهم دعوتني فأجبت ، وأمرتني فاطعت ، وهذا السحر فاغفر لي . قال : فاستمع الصوت ، فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود ، فسأل عبد الله عن ذلك ؛ فقال : إن يعقوب أخبر بيته إلى السحر بقوله ﴿سوف استغفر لكم ربي﴾ وقد ورد في الحديث أن ذلك كان ليلة الجمعة ، كما قال ابن جرير أيضاً : حدثني المثني ، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن أبو أيوب الدمشقي ، حدثنا أبو الوليد ، أنبأنا ابن جريج عن عطاء ، وعكرمة عن ابن عباس ، عن رسول الله ﷺ ﴿سوف استغفر لكم ربي﴾ يقول : حتى يأتي ليلة الجمعة ، وهو قول أخي يعقوب لبيبة وهذا غريب من هذا الوجه ، وفي رفعه نظر ، والله أعلم .

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبُوتِهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ
إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبُوتِهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾

يخبر تعالى عن ورود يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام ، وقدمه بلاد مصر ، لما كان يوسف قد تقدم لاختوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين ، فتحملوا عن آخرهم ، وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر ، فلما أخبر يوسف عليه السلام باقترابهم ، خرج لتلقيهم وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف لتلقي نبي الله يعقوب عليه السلام ؛ ويقال : إن الملك خرج أيضاً لتلقيه ، وهو الأشبه ؛ وقد أشكل قوله ﴿أوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر﴾ على كثير من المفسرين ، فقال بعضهم : هذا من المقدم والمؤخر ، ومعنى الكلام ﴿وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمين﴾ وأوى

إليه أبويه ورفعها على العرش. ورد ابن جرير هذا، وأجاد في ذلك، ثم اختار ما حكاه عن السدي أن يوسف آوى إليه أبويه لما تلقاهما، ثم لما وصلوا باب البلد قال ﴿ادخلوا مصر إن شاء الله آمين﴾ وفي هذا نظر أيضاً، لأن الإيواء إنما يكون في المنزل، كقوله ﴿آوى إليه أخاه﴾ وفي الحديث «من آوى محدثاً وما المانع أن يكون قال لهم بعدما دخلوا عليه وآواهم إليه: ادخلوا مصر، وضمنه اسكنوا مصر إن شاء الله آمين، أي مما كنتم فيه من الجهد والقحط، ويقال - والله أعلم - إن الله تعالى رفع عن أهل مصر بقية السنين المجدة ببركة قدوم يعقوب عليهم، كما رفع بقية السنين التي دعا بها رسول الله ﷺ على أهل مكة حين قال «اللهم أعني عليهم بسبع كسب يوسف» ثم لما تضرعوا إليه، واستشفعوا لديه، وأرسلوا أبا سفيان في ذلك؛ فدعا لهم فرفع عنهم بقية ذلك ببركة دعائه عليه السلام.

وقوله ﴿آوى إليه أبويه﴾ قال السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنما كان أباه وخالته، وكانت أمه قد ماتت قديماً. وقال محمد بن إسحاق وابن جرير: كان أبوه وأمه يعيشان؛ قال ابن جرير: ولم يبق دليل على موت أمه؛ وظاهر القرآن يدل على حياتها، وهذا الذي نصره هو المنصور الذي يدل عليه السياق. وقوله ﴿ورفع أبويه على العرش﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعني السرير، أي اجلسها معه على سرير، ﴿وخروا له سجداً﴾ أي سجد له أبواه وإخوته الباقون. وكانوا أحد عشر رجلاً، ﴿وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل﴾ أي التي كان قصها على أبيه من قبل، ﴿إني رأيت أحد عشر كوكباً﴾ الآية؛ وقد كان هذا سائغاً في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام، فحرم هذا في هذه الملة، وجعل السجود مختصاً بجناب الرب سبحانه وتعالى؛ هذا مضمون قول قتادة وغيره.

وفي الحديث أن معاذاً قدم الشام فوجدهم يسجدون لأسماقتهم، فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ فقال «ما هذا يا معاذ؟» فقال إني رأيتهم يسجدون لأسماقتهم، وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله؛ فقال «لو كنت أمراً أحداً أن يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها». وفي حديث آخر: أن سلمان لقي النبي ﷺ في بعض طرق المدينة. وكان سلمان حديث عهد بالإسلام، فسجد للنبي ﷺ فقال «لا تسجد لي يا سلمان، واسجد للحبي الذي لا يموت»، والغرض أن هذا كان جائزاً في شريعتهم، ولهذا خروا له سجداً؛ فعندها قال يوسف ﴿يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً﴾ أي هذا ما آل إليه الأمر، فإن التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر، كما قال تعالى: ﴿هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله﴾ أي يوم القيامة يأتيهم ما وعدوا به من خير وشر.

وقوله ﴿قد جعلها ربي حقاً﴾ أي صحيحة صدقاً يذكر نعم الله عليه؛ ﴿وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو﴾ أي البادية. قال ابن جرير وغيره: كانوا أهل بادية وماشية، وقال: كانوا يسكنون بالعربات من أرض فلسطين من غور الشام؛ قال: وبعض يقول: كانوا بالأولاج من ناحية شعب أسفل من حسمى، وكانوا أصحاب بادية وشاء وإبل، ﴿من بعد أن نزع الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء﴾ أي إذا أراد أمراً قبيحاً له أسباباً وقدره ويسره ﴿إنه هو العليم﴾ بمصالح عباده، ﴿الحكيم﴾ في أقواله وأفعاله وقضائه وقدره وما يختاره ويريده. قال أبو عبيان النهدي، عن سليمان: كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة. قال عبدالله بن شداد: وإليها ينتهي أقصى الرؤيا، رواه ابن جرير؛ وقال أيضاً: حدثنا عمر بن علي، حدثنا عبد الوهاب الثقفي، حدثنا هشام عن الحسن قال: كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا ثمانون سنة، لم يفارق الحزن قلبه، ودموعه تجري على خديه، وما على وجه الأرض عبد أحب إلى الله من يعقوب.

وقال هشيم، عن يونس، عن الحسن: ثلاث وثمانون سنة. وقال مبارك بن فضالة، عن الحسن: ألقى يوسف في الحب وهو ابن سبع عشرة سنة، فغاب عن أبيه ثمانين سنة، وعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة، فمات وله عشرون ومائة سنة. وقال قتادة: كان بينها خمس وثلاثون سنة. وقال محمد بن إسحاق - ذكر - والله أعلم - أن غيبة يوسف عن يعقوب كانت ثمانين سنة؛ قال: وأهل الكتاب يزعمون أنها كانت أربعين سنة أو نحوها، وأن يعقوب عليه السلام بقي مع يوسف بعد أن قدم عليه مصر سبع عشرة سنة، ثم قبضه الله إليه. وقال أبو إسحاق السبيعي، عن أبي عبيدة، عن عبدالله بن مسعود، قال: دخل بنو إسرائيل مصر وهم ثلاثة وستون إنساناً؛ وخرجوا منها وهم ستائة ألف وسبعون ألفاً، وقال أبو إسحاق، عن مسروق: دخلوا وهم ثلاثمائة وتسعون بين رجل وامرأة، فالله أعلم. وقال موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب القرظي، عن عبدالله بن شداد: اجتمع آل يعقوب إلى يوسف بمصر وهم ستة وثمانون إنساناً: صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنتاهم، وخرجوا منها وهم ستائة ألف ونيف.

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَرَبِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾

تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقَنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١١٣﴾

هذا دعاء من يوسف الصديق ، دعا به ربه عز وجل لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه وإخوته ، وما من الله به عليه من النيرة والملك سأل ربه عز وجل كما أتم نعمته عليه في الدنيا أن يستمر بها عليه في الآخرة ، وأن يتوفاه مسلماً حين يتوفاه ، قال الضحاك ، وأن يلحقه بال صالحين وهم إخوانه من النبيين والمرسلين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وهذا الدعاء يحتمل أن يوسف عليه السلام ، قال عند احتضاره ؛ كما ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ جعل يرفع أصبعه عند الموت ويقول «اللهم في الرفيق الأعلى» ثلاثاً ، ويحتمل أنه سأل الوفاة على الاسلام واللاحق بال صالحين إذا جاء أجله ، وانقضى عمره ، لا أنه سأل ذلك منجزاً كما يقول الداعي لغيره : أمانك الله على الاسلام ، ويقول الداعي : اللهم أحيينا مسلمين ، وتوفنا مسلمين ، وألحقنا بال صالحين ؛ ويحتمل أنه سأل ذلك منجزاً ، وكان ذلك سائغاً في ملتهم ، كما قال قتادة قوله «توفني مسلماً وألحقني بال صالحين» لما جمع الله شمله وأقر عينه ، وهو يومئذ مغفور في الدنيا وملكها ونضارتها ، اشتاق إلى الصالحين قبله .

وكان ابن عباس يقول : ما تمنى نبي قط الموت قبل يوسف عليه السلام ؛ وكذا ذكر ابن جرير والسدي عن ابن عباس أنه أول نبي دعا بذلك ، وهذا يحتمل أنه أول من سأل الوفاة على الاسلام ، كما أن نوحاً أول من قال «رب اغفر لي ولوالدي ولن أدخل بيتي مؤمناً» ويحتمل أنه أول من سأل انجاز ذلك ، وهو ظاهر سياق قول قتادة ، ولكن هذا لا يجوز في شريعتنا . قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، حدثنا عبد العزيز بن صهيب عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به فإن كان ولا بد متمنياً الموت ، فليقل : اللهم أحييني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي» وأخرجه في الصحيحين ؛ وعندهما «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به إما محسناً فيزداد ، وإما مسيئاً فلعله يستعقب ؛ ولكن ليقل : اللهم أحييني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي .»

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا معاذ بن رفاعه ، حدثني علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة قال : جلسنا إلى رسول الله ﷺ فذكرنا ورقتنا ، فبكى سعد بن أبي وقاص فأكثر البكاء ، وقال : يا ليتني مت ؛ فقال النبي ﷺ «يا سعد أعندي تمنى الموت ؟» فردد ذلك ثلاث مرات ، ثم قال «يا سعد إن كنت خلقت للجنة ، فما طال من عمرك وحسن من عملك فهو خير لك» وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا أبو يونس ، وهو مسلم بن جبيرة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ولا يدع به من قبل أن يأتيه إلا أن يكون قد وثق بعمله ، فإنه إذا مات أحدكم انقطع عنه عمله ، وأنه لا يزيد المؤمن عمله إلا خيراً» تفرد به أحمد ؛ وهذا فيما إذا كان الضر خاصاً به ، وأما إذا كان فتنة في الدين فيجوز سؤال الموت ، كما قال الله تعالى إخباراً عن السحرة لما أرادهم فرعون عن دينهم وتهدهم بالقتل «قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين» وقالت مريم لما أجاها المخاض ، وهو الطلق ، إلى جذع النخلة «يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً» لما علمت من أن الناس يقذفونها بالفاحشة ، لأنها لم تكن ذات زوج ، وقد حملت ووضعت ، وقد قالوا «يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً يا أخت هارون ما كان أبوك أمراً سوء وما كانت أمك بغياً» فجعل الله لها من ذلك الحال فرجاً ومخرجاً ، وأنطق الصبي في المهد بأنه عبد الله ورسوله ، فكان آية عظيمة ، ومعجزة باهرة صلوات الله وسلامه عليه . وفي حديث معاذ الذي رواه الإمام أحمد والترمذي في قصة المنام والدعاء فيه «وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضني إليك غير مفتون» .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو سلمة ، أنا عبد العزيز بن محمد عن عمرو بن عاصم ، عن كثير بن قتادة ، عن محمود بن لبيد مرفوعاً أن النبي ﷺ قال «اثنان يكرهها ابن آدم : يكره الموت والموت خير للمؤمن من الفتن ، ويكره قلة المال وقلة المال أقل للحساب» فعند حلول الفتن في الدين يجوز سؤال الموت ؛ ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في آخر خلافته لما رأى أن الأمور لا تجتمع له ولا يزداد الأمر إلا شدة ، فقال : اللهم خذني إليك ، فقد سئمتهم وسئمتوني . وقال البخاري رحمه الله ، لما وقعت له تلك الفتنة وجرى له مع أمير خراسان ما جرى ، قال : اللهم توفني إليك . وفي الحديث «إن الرجل ليمر بالقبور - أي في زمان الدجال - فيقول : يا ليتني مكانك» لما يرى من الفتن . والزلازل والبلابل والأمور

الهائلة التي هي فتنة لكل مفتون . قال أبو جعفر بن جرير : وذكر أن بني يعقوب الذين فعلوا بيوسف ما فعلوا ، استغفر لهم أبوهم ، فتاب الله عليهم ، وعفا عنهم ، وغفر لهم ذنوبهم .
(ذكر من قال ذلك)

حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثني حجاج عن صالح المري ، عن يزيد الرقاشي ، عن أنس بن مالك قال : إن الله تعالى لما جمع ليعقوب شمله بعينه خلا ولده نجيا ؛ فقال بعضهم لبعض : ألسنتم قد علمتم ما صنعتم ؟ وما لقي منكم الشيخ ، وما لقي منكم يوسف ؟ قالوا : بلى . فيغركم عفوهما عنكم ، فكيف لكم بربكم ؟ فاستقام أمرهم على أن أتوا الشيخ ، فجلسوا بين يديه ويوسف إلى جانب أبيه قاعد ، قالوا : يا أبانا إنا أتيناك لأمر لم نأتك لأمر مثله قط ، ونزل بنا أمر لم ينزل بنا مثله قط حتى حركوه ، والأنبيا عليهم السلام أرحم البرية ؛ فقال : ما لكم يا بني ؟ قالوا : ألسنت قد علمت ما كان منا إليك وما كان منا إلى أختينا يوسف ؟ قال : بلى قالوا : أولستنا قد غفرتما لنا ؟ قالوا : بلى . قالوا : فإن عفوكما لا يغني عنا شيئا ، إن كان الله لم يعف عنا . قال : فما تريدون يا بني ؟ قالوا : نريد أن تدعو الله لنا ، فإذا جاءك الوحي من الله بأنه قد عفا عنا ، قرأت أعيننا ، واطمأنت قلوبنا ، وإلا فلا قرأت عين في الدنيا لنا أبدا . قال : فقام الشيخ فاستقبل القبلة ، وقام يوسف خلف أبيه ، وقاموا خلفها أذلة خاشعين ، قال : فدعا وأمن يوسف ، فلم يجب فيهم عشرين سنة ، قال صالح المري يخفهم ، قال : حتى إذا كان على رأس العشرين نزل جبريل عليه السلام ، على يعقوب عليه السلام ، فقال : إن الله تعالى قد عفا عما صنعوا ، وأنه قد اعتقد موافقهم من بعدك على النبوة . هذا الأثر موقوف عن أنس . ويزيد الرقاشي وصالح المري ضعيفان جداً . وذكر السدي أن يعقوب عليه السلام لما حضره الموت أوصى إلى يوسف بأن يدفن عند إبراهيم وإسحاق ، فلما مات صبره وأرسله إلى الشام ، فدفن عندهما عليهم السلام .

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١١٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ

حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾ وَمَا تَشْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١١٤﴾

يقول تعالى لمحمد ﷺ لما قص عليه نبأ إخوة يوسف ، وكيف رفعه الله عليهم ، وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم ، مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والاعدام ، وهذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب السابقة ﴿نوحيه إليك﴾ ونعلمك به يا محمد لما فيه من العبرة لك ، والاتعاظ لمن خالفك ﴿وما كنت لديهم﴾ حاضرأ عندهم ولا مشاهدا لهم ﴿إذ أجمعوا أمرهم﴾ أي على إلقائه في الحب ﴿وهم يَمْكُرُونَ﴾ به ، ولكننا أعلمناك به وحيأ إليك وإنزالا عليك ، كقوله ﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم﴾ الآية ؛ وقال تعالى : ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ الآية ، إلى قوله ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾ الآية ؛ وقال ﴿وما كنت في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا﴾ الآية ، وقال ﴿ما كان لي من علم بالملا الأعلى إذ يختصمون﴾ إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين﴾ يقول تعالى : إنه رسوله وإنه قد أطلعه على أنباء ما قد سبق ، مما فيه عبرة للناس ونجاة لهم في دينهم ودنياهم ، ومع هذا ما آمن أكثر الناس ؛ ولهذا قال ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ وقال ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾ كقوله ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ إلى غير ذلك من الآيات . وقوله ﴿وما تسألهم عليه من أجر﴾ أي ما تسألهم يا محمد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر ، أي من جعالة ولا أجر ، بل تفعله ابتغاء وجه الله ونصحا لخلقك ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ أي يتذكرون به ويستدون وينجون به في الدنيا والآخرة .

وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١١٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا

وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١١٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَنْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١٧﴾

يجير تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكير في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه الله في السموات والأرض من كواكب زهرات ثوابت ، وسيارات وأفلاك دائرات ؛ والجميع مسخرات ، وكم في الأرض من قطع متجاورات ، وحدائق

وجنات ، وجبال راسيات ، وبحار زاخرات ، وأمواج متلاطمت ، وقفار شاسعات ، وكم من أحياء وأموات ، وحيوان ونبات ، وثمرات متشابهة ومختلفات في الطعوم والروائح والألوان والصفات ، فسبحان الواحد الأحد ، خالق أنواع المخلوقات المتفرد بالدوام والبقاء والصدقية للأسماء والصفات ، وغير ذلك .

وقوله ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ قال ابن عباس : من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم : من خلق السموات ، ومن خلق الأرض ، ومن خلق الجبال ؟ قالوا : الله ، وهم مشركون به . وكذا قال مجاهد وعطاء وعكرمة والشعبي وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وفي الصحيحين : أن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم : ليك لا شريك لك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك . وفي صحيح مسلم أنهم كانوا إذا قالوا : ليك لا شريك لك ، قال رسول الله ﷺ «قد قد» أي حسب حسب ، لا تزيدوا على هذا . وقال الله تعالى : ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ وهذا هو الشرك الأعظم يعبد مع الله غيره ، كما في الصحيحين عن ابن مسعود قلت : يا رسول الله ، أي الذنب أعظم ؟ قال وإن تجعل لله ندا وهو خلقك .

وقال الحسن البصري في قوله ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ قال : ذلك لمنافق يعمل إذا عمل رياء الناس ، وهو مشرك بعمله ، ذلك يعني قوله تعالى : إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾ وثم شرك آخر خفي لا يشعر به غالباً فاعله ، كما روى حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن عروة قال : دخل حذيفة على مريض فرأى في عضده سيراً فقطعه - أو انتزعه - ثم قال ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ . وفي الحديث «من حلف بغير الله فقد أشرك» رواه الترمذي وحسنه من رواية ابن عمر ؛ وفي الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «إن الرقى والتماثيل والتولة شرك» ، وفي لفظ لها «الطيرة شرك وما منا إلا ولكن الله يذهب بالتوكل» رواه الإمام أحمد بأبسط من هذا فقال : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش عن عمرو بن مرة ، عن يحيى الجزار عن ابن أخي زينب ، عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت : كان عبد الله إذا جاء من حاجة فأتته إلى الباب تتحنج ويزق كراهة أن يعجم منا على أمر يكرهه ، قالت : وإنه جاء ذات يوم فتحنج وعندي عجوز ترقيني من الحمرة فأدخلتها تحت السرير ، قالت : فدخل فجلس إلى جانبي ، فرأى في عنقي خيطاً فقال : ما هذا الخيط ؟ قالت : قلت : خيط رقي لي فيه ، فأخذه فقطعه ثم قال : إن آل عبد الله لا غنياء عن الشرك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن الرقى والتماثيل والتولة شرك» قالت : قلت له : لم تقول هذا وقد كانت عيني تقذف ، فكنت اختلف إلى فلان اليهودي يرقئها ، فكان إذا رقاها سكنت ؛ فقال إنما ذاك من الشيطان كان ينحسها بيده ؛ فإذا رقاها كف عنها ، إنما كان يكفك أن تقول كما قال النبي ﷺ «أذهب الباس ، رب الناس ، اشف وأنت الشافي ، لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقماً» .

وفي حديث آخر رواه الإمام أحمد عن وكيع ، عن ابن أبي ليل ، عن عيسى بن عبد الرحمن قال : دخلت على عبد الله بن عكيم وهو مريض نموده ، فقيل له ، لو تعلقت شيئاً ؛ فقال : أتعلق شيئاً وقد قال رسول الله ﷺ «من تعلق شيئاً وكل إليه» ورواه النسائي عن أبي هريرة ، وفي مسند الإمام أحمد من حديث عقبه بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ «من علق نغمة فقد أشرك» ، وفي رواية «من تعلق نغمة فلا أتم الله له ، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له» ، وعن العلاء عن أبيه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «يقول الله : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه» رواه مسلم .

وعن أبي سعيد بن أبي فضالة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ينادي مناد : من كان أشرك في عمل عمله لله ، فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك» رواه الإمام أحمد وقال أحمد : حدثنا يونس ، حدثنا ليث عن يزيد يعني ابن الهاد ، عن عمرو ، عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال «الرياء» يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جاز الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء ؟» وقد رواه إسماعيل بن جعفر عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب ؛ عن عاصم بن عمرو عن قتادة عن محمود بن لبيد . وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، أنبأنا ابن لهيعة ، أنبأنا ابن هبيرة عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ «من رده الطيرة عن حاجته فقد أشرك» قالوا : يا رسول الله ، ما كفارة ذلك ؟ قال «أن يقول أحدهم : اللهم لا خير إلا خيرك ، ولا طير إلا طيرك ، ولا إله غيرك» .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن نمير ، حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان العرزمي عن أبي علي رجل من بني

كاهل قال : خطبنا أبو موسى الأشعري فقال : يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك ، فإنه أخفى من ديبب النمل . فقام عبد الله بن حرب وقيس بن المضارب فقالا : والله لتخرجن مما قلت ، أو لتأتين عمر ماؤونا لنا أو غير ماؤون . قال : بل أخرج مما قلت ، خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال «يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك ، فإنه أخفى من ديبب النمل» فقال له من شاء الله أن يقول : فكيف نتقيه وهو أخفى من ديبب النمل يا رسول الله ؟ قال «قولوا : اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه» . وقد روي من وجه آخر ، وفيه أن السائل في ذلك هو الصديق ؛ كما رواه الحافظ أبو يعلى لموصلي من حديث عبد العزيز بن مسلم ، عن ليث بن أبي سليم ، عن أبي محمد ، عن معقل بن يسار ، قال : شهدت النبي ﷺ أو قال : حدثني أبو بكر الصديق عن رسول الله ﷺ أنه قال «الشرك أخفى فيكم من ديبب النمل» ؛ فقال أبو بكر : وهل الشرك إلا من دعا مع الله إله آخر ؟ فقال رسول الله ﷺ «والشرك فيكم أخفى من ديبب النمل» ثم قال «ألا أدلك على ما يذهب عنك صغير ذلك وكبيره ؟ قل : اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، واستغفرك عما لا أعلم» .

وقد رواه الحافظ أبو القاسم البغوي عن شيبان بن فروخ ، عن يحيى بن كثير ، عن الثوري ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن قيس بن أبي حازم ، عن أبي بكر الصديق ، قال : قال رسول الله ﷺ «الشرك أخفى في أمتي من ديبب النمل على الصفا» قال : فقال أبو بكر : يا رسول الله ، فكيف النجاة والمخرج من ذلك ؟ فقال «ألا أخبرك بشيء إذا قلته برئت من قليله وكثيره وصغيره وكبيره ؟» قال : بلى يا رسول الله . قال «قل : اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، واستغفرك لما لا أعلم» . قال الدارقطني : يحيى بن أبي كثير هذا ، يقال له أبو النصر ، متروك الحديث ؛ وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي من حديث يعلى بن عطاء ، سمعت عمرو بن عاص ، سمعت أبا هريرة قال : قال أبو بكر الصديق : يا رسول الله ؛ علمني شيئاً أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت ، وإذا أخذت مضجعي ، قال «قل : اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، رب كل شيء ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر نفسي ومن شر الشيطان وشركه» ؛ رواه أبو داود والنسائي وصححه ، وزاد الإمام أحمد في رواية له : من حديث ليث بن أبي سليم عن مجاهد ، عن أبي بكر الصديق ، قال : أمرني رسول الله ﷺ أن أقول - فذكر هذا الدعاء وزاد في آخره - «وأن أقرت على نفسي سواً أو أجره إلى مسلم» .

وقوله «أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله» الآية ؛ أي أفأمن هؤلاء المشركون بالله أن يأتيهم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون ، كقوله تعالى : «أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون * أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين * أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرهوف رحيم» . وقوله «أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون * أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون * أفأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون» .

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٧٨﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ إلى الثقلين : الإنس والجن ، أمراً له أن يخبر الناس أن هذه سبيله أي طريقته ومسلكه وسنته ، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان هو وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي . وقوله «وسبحان الله» أي وأئذ الله وأجله وأعظمه وأقدس من أن يكون له شريك أو نظير أو عدل أو نديد أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير ، مبارك وتقدس وتنزه وتعالى عن ذلك كله علواً كبيراً ، «تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً» .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ

عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٧٩﴾

يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لا من النساء ، وهذا قول جمهور العلماء ، كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة أن الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات بني آدم وحي تشرية . وزعم بعضهم أن سارة امرأة الخليل وأم موسى ومريم بنت عمران أم عيسى نبيات ، واحتجوا بأن الملائكة بشرت سارة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ، ويقولون ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه﴾ الآية ؛ وبأن الملك جاء إلى مريم فبشرها بعيسى عليه السلام ، ويقولون تعالى : ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين﴾ يا مريم اقتني لربك واسجدي واركعي مع الراكعين ، وهذا القدر حاصل لمن ، ولكن لا يلزم من هذا أن يكن نبيات بذلك ، فإن أراد القائل بنبوتهم هذا القدر من التشريف ، فهذا لا شك فيه ، ويبقى الكلام معه في أن هذا هل يكفي في الانتظام في سلك النبوة بمجرد أم لا ؟ الذي عليه أهل السنة والجماعة ، وهو الذي نقله الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عنهم أنه ليس في النساء نبية ، وإنما فيهن صديقات ، كما قال تعالى مخبراً عن أشرفهن مريم بنت عمران حيث قال تعالى : ﴿وما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام﴾ فوصفها في أشرف مقاماتها بالصديقية ، فلو كانت نبية لذكر ذلك في مقام التشريف والاعظام ، فهي صديقة بنص القرآن .

وقال الضحاک عن ابن عباس في قوله ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً﴾ الآية ؛ أي ليسوا من أهل النساء كما قلت ، وهذا القول من ابن عباس يعتضد بقوله تعالى : ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾ الآية ؛ وقوله تعالى : ﴿وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين﴾ ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين . وقوله تعالى : ﴿قل ما كنت بدعا من الرسل﴾ الآية . وقوله ﴿من أهل القرى﴾ المراد بالقرى المدن لا أنهم من أهل البوادي الذين هم من أجنف الناس طباعاً وأخلاقاً ، وهذا هو المعهود المعروف أن أهل المدن أرق طباعاً وألطف من أهل بواديهم ، وأهل الريف والسواد أقرب حالاً من الذين يسكنون في البوادي ، ولهذا قال تعالى : ﴿الأعراب أشد كفرةً ونفاقاً﴾ الآية . وقال قتادة في قوله ﴿من أهل القرى﴾ لأنهم أعلم وأحلم من أهل العمور . وفي الحديث الآخر أن رجلاً من الأعراب أهدى لرسول الله ﷺ ناقة فلم يزل يعطيه ويزيده حتى رضي ، فقال رسول الله ﷺ ولقد هممت أن لا أتعب هبة إلا من قرشي أو أنصاري أو ثقيفي أو دوسي .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، حدثنا شعبة عن الأعمش عن يحيى بن ثابت ، عن شيخ من أصحاب رسول الله ﷺ قال الأعمش : هو ابن عمر ، عن النبي ﷺ أنه قال «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم . وقوله ﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾ يعني هؤلاء المكذبين لك يا محمد في الأرض ﴿فإنظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ أي من الأمم المكذبة للرسول ، كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ، كقوله ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾ الآية ؛ فإذا استمعوا خبر ذلك رأوا أن الله قد أهلك الكافرين ونجى المؤمنين ، وهذه كانت سنته تعالى في خلقه ، ولهذا تعالى : ﴿ولدار الآخرة خير للذين اتقوا﴾ أي وكما نجينا المؤمنين في الدنيا كذلك كتبنا لهم النجاة في الدار الآخرة وهي خير لهم من الدنيا بكثير ، كقوله ﴿إننا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم وهم اللعنة وهم سوء الدار﴾ وأضاف الدار إلى الآخرة ، فقال ﴿ولدار الآخرة﴾ كما يقال : صلاة الأولى ، ومسجد الجامع ، وعام أول ، وبارحة الأولى ، ويوم الخميس . قال الشاعر :

أتمدح فقعسا وتذم عبسا ألا الله أمك من هجين
ولسو أقوت عليك ديار عبس عرفت الذل عرفان اليقين

حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشْأَةٍ لَّا يَرُدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١١﴾

يذكر تعالى أن نصره ينزل على رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله في أحوال الأوقات إليه ، كقوله تعالى : ﴿وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾ الآية ، وفي قوله ﴿كذبوا﴾ قراءتان إحداهما بالشديد قد كذبوا ، وكذلك كانت عائشة رضي الله عنها تقرؤها ؛ قال البخاري : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثنا إبراهيم بن سعد عن صالح عن ابن شهاب قال : أخبرني عروة بن الزبير عن عائشة أنها قالت له وهو يسألها عن قوله الله تعالى ﴿حتى إذا استيأس الرسل﴾ قال : قلت : أكذبوا أم كذبوا ؟ قالت عائشة : كذبوا . قلت فقد استيقنوا أن قومهم كذبهم فما هو بالظن ؟ قالت : أجل لعمرى لقد استيقنوا بذلك ؛ فقلت لها ﴿وظنوا أنهم قد

كذبوا؟ قالت معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بريها قلت : فما هذه الآية ؟ قالت : هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم ، فطال عليهم البلاء ، واستأخروهم النصر ﴿حتى إذا استيأس الرسل﴾ ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن اتباعهم قد كذبوهم ، جاء نصر الله عند ذلك ؛ حدثنا أبو اليمان ، أنبأنا شعبة عن الزهري قال : أخبرنا عروة فقلت لها : لعلها قد كذبوا مخففة ؟ قالت : معاذ الله . انتهى ما ذكره .

وقال ابن جريج : أخبرني ابن أبي مليكة أن ابن عباس قرأها ﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ خفيفة . قال عبد الله هو ابن أبي مليكة ثم قال لي ابن عباس : كانوا بشراً ، ثم تلا ﴿حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب﴾ قال ابن جريج : وقال لي ابن أبي مليكة ، وأخبرني عروة عن عائشة أنها خالفت ذلك وأبته ، وقالت : ما وعد الله محمدًا ﷺ من شيء إلا قد علم أنه يكون حتى مات ، ولكنه لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنوا أن من معهم من المؤمنين قد كذبوهم . قال ابن أبي مليكة في حديث عروة ، كانت عائشة تقرؤها ﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ مثقلة من التكذيب . وقال ابن أبي حاتم : أنا يونس بن عبد الأعلى قراءة ، أنا ابن وهب ، أخبرني سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد قال : جاء إنسان إلى القاسم بن محمد فقال : إن محمد بن كعب القرظي قرأ هذه الآية ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ فقال القاسم : أخبره عني أبي سمعت عائشة زوج النبي ﷺ تقوله ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ تقول : كذبتهم أتباعهم إسناد صحيح أيضاً .

والقراءة الثانية بالتخفيف ، واختلفوا في تفسيرها ، فقال ابن عباس ما تقدم . وعن ابن مسعود فيها رواه سفيان الثوري عن الأعمش ، عن أبي الضحى ، عن مسروق ، عن عبد الله أنه قرأ ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ مخففة ، قال عبد الله : هو الذي تكره ، وهذا عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنها ، مخالف لما رواه آخرون عنها . أما ابن عباس ، فروى الأعمش عن مسلم عن ابن عباس في قوله ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ قال : لما أيست الرسل أن يستجيب لهم قومهم وظن قومهم أن الرسل قد كذبوهم ، جاءهم النصر على ذلك ﴿فتنحي من نشاء﴾ وكذا روي عن سعيد بن جبيرة وعمران بن الحارث السلمي وعبد الرحمن بن معاوية وعلي بن أبي طلحة والعمري عن ابن عباس بمثله .

وقال ابن جرير : حدثني المثنى ، حدثنا عارم أبو النعمان ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا شعيب ، حدثنا إبراهيم بن أبي حمزة الجزري قال : سألت فتي من قريش سعيد بن جبيرة قال : أخبرنا أبا عبد الله كيف هذا الحرف ، فإني إذا أتيت عليه تمنيت أن لا أقرأ هذه السورة ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ ؟ قال : نعم حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يصدقوهم ، وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا ؛ فقال الضحاک بن مزاحم : ما رأيت كالיום قط رجلاً يدعى إلى علم فيتلکأ ، لورحلت إلى اليمن في هذه كان قليلاً ؛ ثم روى ابن جرير أيضاً من وجه آخر أن مسلم بن يسار سأل سعيد بن جبيرة عن ذلك ، فأجابه بهذا الجواب ، فقام إلى سعيد فاعتقه وقال : فرج الله عنك كما فرجت عني ؛ وهكذا روي من غير وجه عن سعيد بن جبيرة أنه فسرها كذلك ؛ وكذا فسرها مجاهد بن جبر وغير واحد من السلف حتى إن مجاهداً قرأها ﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ بفتح الذال رواه ابن جرير إلا أن بعض من فسرها كذلك يعيد الضمير في قوله ﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ إلى أتباع الرسل من المؤمنين ، ومن من يعيده إلى الكافرين منهم ، أي وظن الكفار أن الرسل قد كذبوا مخففة فيما وعدوا به من النصر . وأما ابن مسعود ، فقال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا محمد بن فضيل عن حمش بن زياد الضبي عن تميم بن حزم قال : سمعت عبد الله بن مسعود يقول في هذه الآية ﴿حتى إذا استيأس الرسل﴾ من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كذبوا بالتخفيف - فهاتان الروايتان عن كل من ابن مسعود وابن عباس ، وقد أنكرت ذلك عائشة على من فسرها بذلك ، وانتصر لها ابن جرير ، ووجه المشهور عن الجمهور وزيف القول الآخر بالكلية ، ورده وأباه ولم يقبله ولا ارتضاه ، والله أعلم .

لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَٰكِن تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ



وَتَقْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

يقول تعالى : لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم ، وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين ﴿عبرة لأولي الأبواب﴾ وهي العقول ، ﴿وما كان حديثاً يفترى﴾ أي وما كان لهذا القرآن أن يفترى من دون الله ، أي يكذب ويخترق ﴿ولكن تصديق الذي بين يديه﴾ أي من الكتب المنزلة من السماء هو يصدق ما فيها من الصحيح ، وينفي ما وقع فيها من تحريف

وتبديل وتغيير ، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير ﴿وتفصيل كل شيء﴾ من تحليل وتحريم ومحبوب ومكروه ، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات ، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات ، والإخبار عن الأمور الجليلة ، وعن الغيوب المستقبلية المجملة والتفصيلية ، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات ، وتنزهه عن مماثلة المخلوقات ، فلهذا كان ﴿هدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ تهدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد ، ومن الضلال إلى السداد ، ويستنون به الرحمة من رب العباد ، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد ، فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخرة ، يوم يفوز بالريح المبيضة وجوههم الناضرة ، ويرجع المسودة وجوههم بالصفقة الخاسرة . آخر تفسير سورة يوسف عليه السلام والله الحمد والمنة وبه المستعان .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَرْ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور ، فقد تقدم في أول سورة البقرة ، وقدمنا أن كل سورة ابتدئت بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب ؛ ولهذا قال ﴿تلك آيات الكتاب﴾ أي هذه آيات الكتاب ، وهو القرآن ؛ وقيل : التوراة والإنجيل ، قاله مجاهد وقتادة ، وفيه نظر بل هو بعيد ؛ ثم عطف على ذلك عطف صفات فقال ﴿والذي أنزل إليك﴾ أي يا محمد ﴿من ربك الحق﴾ خبر تقدم مبتدؤه ، وهو قوله ﴿والذي أنزل إليك من ربك﴾ هذا هو الصحيح المطابق لتفسير مجاهد وقتادة ، واختار ابن جرير أن تكون الواو زائدة أو عاطفة صفة على صفة كما قدمنا ، واستشهد بقول الشاعر :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم
وقوله ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ كقوله ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ أي مع هذا البيان والجلال والوضوح لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق والعناد والنفاق .

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ

يُقْضَىٰ الْأَجَلُ أَيَّامًا لَعَلَّكُمْ يَلْقَآءُ رَبِّكُمْ تَوَقُّؤُنَ ﴿٢﴾

يخبر تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه أنه الذي يأذنه وأمره رفع السموات بغير عمد ، بل بإذنه وأمره وتسخييره رفعها عن الأرض بعد أن تنال ولا يدرك مداها ، فالسماوات الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حوفاها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاها وأرجائها ، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء ، وبعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام ، وسمكها في نفسها مسيرة خمسمائة عام ، وهكذا الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة ، كما قال تعالى ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن﴾ الآية .

وفي الحديث ﴿ما السموات السبع وما فيهن وما بينهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، والكرسي في العرش المجيد كتلك الحلقة في تلك الفلاة﴾ . وفي رواية ﴿والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل﴾ وجاء عن بعض السلف أن بعد ما بين العرش إلى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة ، وبعد ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة ، وهو من ياقوته حمراء . وقوله ﴿بغير عمد ترونها﴾ روي عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد أنهم قالوا : لها عمد ولكن لا ترى . وقال إياس بن معاوية : السماء على الأرض مثل القبة ، يعني بلا عمد ؛ وكذا روي عن قتادة ، وهذا هو اللائق